ABU ABDO ALBAGL

رشيد الضّعيف

غفْلَة التّراب

رواية

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

مدونة ابو عبدو

غفْلَة التّرابُ

رشيد الضعيف

غفلة التراب

رواية

Bibliothèque-Discothèque
COURONNES
66, Rue des Couronnes
75020 PARIS
Tél. : 47 97 80 84

الكتاب: غفلة التراب
المؤلّف: رشيد الضعيف
النوع: رواية
القياس: ١٤٫٥ × ٢١٫٥
الصفحات: ١٤٤
الطبعة الأولى: آب ١٩٩١
خطوط الغلاف: سمير حدّاد
الصف التصويري: بسمان
التوليف والنقش التصويري: الغرافيكا
الطباعة: شركة الطبع والنشر اللبنانية
سيلوفان: فوتو تلكو
التجليد: مؤسسة أنطوان جلخ وإخوانه للتجليد
المنشورات: مختارات ش م م
التوزيع: مختارات ش م م
الزلقا ـ هاتف: ٠١/٨٩٠٣٣٣
صندوق بريد: ٦٠٢١٦
© جميع الحقوق محفوظة
بيروت ـ لبنان

للمؤلّف: **حين حلّ السيف على الصيف**، بيروت، دار الفارابي، باريس، Le Sycomore ١٩٧٩. **لا شيء يفوق الوصف**، بيروت، منشورات لبنان الجديد، ١٩٨٠. **انسي يلهو مع ريتا ـ كتاب البالغين**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٣. **المستبدّ**، بيروت، دار آبعاد، ١٩٨٣. **فسحة مستهدفة بين النّعاس والنّوم**، بيروت، مختارات، ١٩٨٦. **اهل الظل**، بيروت، مختارات، ١٩٨٧. **تقنيات البؤس**، بيروت، مختارات، ١٩٨٩.

يعرف الإهدنيّون أسماء الجهات. ويطلقون على الرياح أسماء.

ويعرفون كذلك أنّ الشمس واحدة. وأنّها تَميل الغروبَ نحو البحر.

لكن، قليل منهم يعرف ـ وسايد من هذا القليل ـ أنّ عدد أشجار الدّلب على الجهة الغربية للميدان تِسْعٌ. ولا أحد يعرف متى زُرعت ـ سايد سأل عن الموضوع.

وهم جميعاً دون استثناء، يغتبطون حين يسمعون أنفسهم يردّدون أنّها قديمة.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

تبعد إهدن عن بيروت مسافة مئة كيلو متر. ورغم ذلك كانت أصوات الإنفجارات تتردّد في أنحائها فتصيب الناسَ الوجوم، وينتشر في فضائها ما يمكن تسميته بالرّهبة، وتخفّ حركة الناس والسيارات إلاّ لِحاجة. ولا يمكن تفسير هذا الأمر بقرب مرابض المدافع منها ـ وهو طبعاً قرب نسبي، لأنه لا يقلّ عن ثلاثين أو أربعين كيلومتراً.

– كأنّ هذه القذائف تنفجر في دماغي! كان يردّد سايد بين فتراتٍ من الصمت أو فتراتٍ من الكلام.

وسايد لم يكن يقول هذا لأنّه يخاف. فهو لا يخاف. فحتىٰ لو بلغ القصف إهدن ـ وهذا أمر لن يحصل ـ فهو لا يخاف. لأنّ مناعته ضدّ الخوف قويّة. ففي العام ١٩٨٢، حين اجتاح الجيش الإسرائيلي بيروت، كان بين القلائل الذين بقوا فيها.

يومها كان باستطاعته أن ينزح عنها، كما نزح مئات الألوف من الناس، لكنّه اختار أن يبقى، عن قناعةٍ راسخة، إختار أن يصمد ـ كان يحلو له أن يقول. إختار أن يقاوم ببقائه الإحتلال الإسرائيلي، رغم أنه لم يكن مقاتلاً يحمل سلاحاً، بل كان مصوّراً فوتوغرافياً.

ويومها، صوّر سايد ألوف الصور من دون أي مقابلٍ مادي، بل على العكس، كان يدفع كل مصاريفه من جيبه الخاص.

وكم مرّة نجا بالصدفة البحتة من رصاصة، أو قذيفة، أو مبنىً ينهار. كان دائماً حاضراً في الأمكنة الصعبة، على الخطوط المتقدّمة، أو حيث يقصف الطيران، أو حيث تقصف البواخر من البحر.

- طوال فترة الإجتياح الإسرائيلي لم أشعر مرّة بما أشعر به الآن: إنّ القذائف الآن تنفجر في دماغي!

لم يترك سايد بيروت طالما بقي فيها الجيش الإسرائيلي. كان يختلق المناسبات التي تسنح له إهانة جندي إسرائيلي، بالنّظرِ إنْ لم يكن بالكلام. وكاد أحياناً أن يكون بالسلاح.

وبعدما انسحب الإسرائيليون من بيروت، غادر سايد، لكن إلى نيويورك حيث هاجر منذ فترة طويلة أَخواه وأخته.

غادر سايد إلى نيويورك تاركاً إبنه إلى والدته تعتني به - وهي عملياً تعتني به منذ أن غادرته زوجته الفرنسيّة بعد بدء الحرب بسنتين لأنها لم تعد تحتمل - على أمل أن يستقدمه لعنده سريعاً، حالما تستقرّ له الأمور.

لكنّ إقامته في نيويورك لم تدم أكثر من ستة أشهر لم يستطع أثناءها إقناع نفسه بالبقاء. فهو، وإن كان يستطيع ممارسة مهنته هناك كمصوّر فوتوغرافي، فإن تصوير البشر والطبيعة يستهويه أكثر في لبنان.

ثمّ، هو يحبّ الغناء العربي. وخصوصاً الغناء المحلّي؛ العَتابا والمعنّى والميجانا.

ويحب سايد عندما ينهض في الصباح ألا يكون مضطراً للقيام بأي جهد مهما كان نوعه، وخصوصاً إذا كان هذا الجهد لغوياً.

URONNES BIB

لم يألف وهو في نيويورك، أن يتكلّم الإنكليزية باكراً قبل أن يشرب قهوته، أو قبل أن يتروَّق. كان يعيش هذا الأمر كأنّ عنفاً صارخاً يُمارَس عليه. فهو أصلاً لا يحبّ الكلام صباحاً حين ينهض، فكيف إذن والكلام بلغةٍ تعلّمها في المدرسة.

الرّاء!

عليه التحكّم بلسانه، وهو يلفظ الرّاء بالإنكليزية، لئلا يرفرف كجناح طير كما في العربية.

لا.

فإذا ما اضطُرّ سايد للكلام صباحاً فيجب أن يكون ذلك كما التنفّس، طبيعياً، يجب أن تنطلق الرّاء في فمه من لسانٍ يغازل الهواء!

ويحب سايد شمس لبنان. وسايد ليس شوفينيّاً ليعتقد أن شمس لبنان ليست هي ذاتها التي تنير البلدان الأخرى، لكنّه يحبّ شمس لبنان. ولا يعتقد أنّ في هذا أذىً لأحد.

وسايد في لبنان يملك الوقت، بخلاف ما الأمر عليه في نيويورك، حيث الوقت سيِّد الإنسان، وحيث التنفّس على موعد.

ثمّ، أمّه المقيمة في لبنان، ترفض الهجرة حتى لو كانت هذه الهجرة للإقامة مع أولادها الذين لم يبق منهم إلى جانبها أحد.

لا أحبّ الموت في الغربة! تردّد أمّه.

لم يكن سايد قبل سفره، يعير قول أمّه هذا أيّ انتباه. لكنّه أحسّ وهو في نيويورك، إحساساً عميقاً، بل غريزياً ربما، بأنّ تراب لبنان آنَسُ من تراب نيويورك، طبعاً بالنسبة له، يحبّ أن يستدرك.

هذا تراجع، كان يقول سايد، بل هذا تقهقر نفسي.

كان يبوح بذلك من دون خجل.

فهو بكل بساطة، وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، لا يريد أن يُجهد نفسه ليعتاد على العيش في بلاد أجنبية.

ولا يزعجه كثيراً حين يُقال له أنه كان استقرّ في نيويورك لو نجح في عملٍ ما، خصوصاً وأنّ أغلب الذين يسافرون ـ إلى كل مكان، وليس إلى نيويورك وحسب ـ لا يعودون.

يحسّ سايد أنّ هذا الكلام على صوابه عامّةً لا يعنيه، فهو يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنّ الحياة في لبنان، بالنسبة له، جميلة. ينقص لبنان فقط ـ عدا السلام طبعاً ـ مزيدٌ من الحريات، وخصوصاً الحريات الشخصية، رغم أنه أكثر بلدان آسيا وأفريقيا حريةً على الإطلاق.

عندما قرّر سايد العودة إلى لبنان، لم يكن سهلاً عليه إختيار الإقامة في بيروت بسبب أوضاعها المستحيلة؛ مسيحيون في شرقها ومسلمون في غربها، ودولٌ تقاتل الشرق فيها، وأخرى تقاتل الغرب.

كلّ أنواع الأفكار وَجَدت لها في بيروت مناصرين حتى الموت... حتى الشهادة.

حتى القتل.

كل أنواع الأحلام وجدت لنفسها في بيروت مناخاً طيّباً لتتجسّد. فبيروت هي المدينة الوحيدة على هذا الكوكب، التي بيعت فيها واشتُريت فسحات في الجنّتين: الأرض والسماء.

بدون شفقة.

آه يا سايد، فكم أنّ الفرق ليس فرقاً بين النضال والجريمة في بيروت!

الهَبَل والعنف والبؤس اليومي!

فاختار سايد أن يعيش مع أمه وابنه في الشمال، في إهدن، بانتظار أن تتوقف الحرب.

وأكثر ما بقي له من إقامته في نيويورك، الألوان. أحبّ سايد هناك الألوان كثيراً. أحبّ الجرأة خصوصاً في استعمالها. فبين ليلة وضحاها تُطلىٰ بناية بالأصفر. أو بالأخضر. وقد باح مرّة لأصدقائه بأنه يتمنىٰ أحياناً لو يستطيع أن يطلي الجبال المحيطة بإهدن بألوان جريئة، فاقعة، وكذلك المباني الرسمية العامة والمباني الأثرية، ولِمَ لا أيضاً الأماكن المقدّسة.

- ماذا لو نطلي كنيسة مار جرجس مثلاً!؟

وكان يردّ على المعترضين، بإعطائهم الحق ـ تكتيكيّاً ـ بالنسبة للكنيسة فقط. ولكن ما المانع من طلي الجبل؟ فإن لون هذا الجبل نعرفه كما هو منذ آلاف السنين، فأين الضرر من تغيير لونه لعدة سنوات؟

وعلى حجّة الكلفة كان يردّ بأنه من الممكن طلي طبقة الصخور العليا، على امتداد مَتْنِه، فقط. أو على امتداد قسمٍ من متنه.

ما من أحدٍ إلا وضحك أو تبسّم حين باح سايد أوّل مرة بما يحلم به أحياناً. لكنّ ردّة الفعل هذه، لم تكن بالنسبة له سوى مناسبة لتمرير فكرته وإثارة النقاش حولها من دون عناد في الدفاع عنها. وقد نجح مع الوقت في إثارة الإهتمام بها، بل وفي إثارة نقاش جدّي حولها.

واستطاع إقناع البعض ـ جميل مثلاً ـ بطرافتها وبالأثر أو بالصّدمة التي يمكن أن تُحدثها في الناس ـ في حال نُفِّذت ـ فينشغلون قليلاً عن سماع الأخبار، ويتسلّون عن الأسىٰ والخوف والقلق الذي تثيره في نفوسهم معارك بيروت. وراقت هذه الفكرة لجميل، خاصة أنّ جميل أقام هو أيضاً في نيويورك مدة سنتين، تعلّم خلالهما الموسيقىٰ، لكنّ الألوان التي يتكلم عنها ساید لم تلفت إنتباهه، غير أنّ الملاحظة هذه جعلته يتذكّر ويحب، رجعياً، هذه الألوان الجريئة.

أما جوزاف أستاذ الجغرافيا ونَصيرُ البيئة والطبيعة فظلّ معانداً، رغم أنّ الأكثرية بدأت تميل مع الوقت إلى رأي ساید. ورفضُ جوزاف كان يعتمد على فكرتين رئيسيتين. الأولى ـ وهي الأهم ـ أنّ الدّهان مع مرور الزمن، سيبلغ المياه الجوفية، مما سيشكل خطراً على الصحة العامة. والثانية، وهي هامّة أيضاً، أنّ عملا كهذا سيثير سخط الناس، إذ لن يقبل أحد من الأهالي بالتأكيد ـ خارج نطاق هذه المجموعة التي هي «غير شكل» ـ بأن يُطلىٰ الجبل، ولا حتى طبقة الصخور في أعلاه.

– أتتصوّرون ما ستكون ردّة فعل الأهالي لو استفاقوا ذات صباح ورأوا صخور جبل السيدة مدهونة؟

لكنّ جوزاف اعتقد أنه وجد أخيراً ما يجمع بينه وبين الأكثرية، فاقترح شراء قماش أو نايلون باللون الذي يتمّ الإتفاق عليه، تُلَبَّسُ به الصخور، لكنّ اقتراحه أثار معارضةً استمدّت قوّتها من غلاء المواد التي يقترح شراءها.

– المهم أن نقوم بعمل ما، لا معنىٰ لكل هذا الكلام الذي نهدره إذا لم نُنَفِّذ!

هذا ما كان يردّده نـافذ كـلّ مرة يجـري الكلام فيهـا على ضرورة كسر الحلقة المفرغة.

- منـذ أشهر، منـذ أن بدأت المعـارك الأخيرة ونحن لا زلنـا في الـدوّامة ذاتهـا، فكلّ مـرّة يجيء أحـدنـا بفكـرة جـديـدة وفي كـل مـرّة نـنـاقشها. فـأين صار اتفـاقنا على دعـوة أحد المغنّين لإحيـاء حفلة غناء ورقص على الميدان تدوم حتى الفجر وتُخرج الناس عن أطوارهم؟

- اتصلتُ بالمغنّي سامي، قـال سايـد، ووافق، لكنه لا يستـطيع تحديد موعد مجيئه منذ اليوم ووعدني بأنه سيفعل ذلك في أقرب وقت. أخبرتكم جميعاً بهذا.

- لكن حتى اليوم لم يتصل بنا ولم نجدّد الإتصال به، ولم نفعـل شيئاً آخر. فنحن نستطيع القيـام بشيء أقلّ ضخـامة، بشيء متـواضع، في انتـظار هـذه الحفلة، بـدل أن نمضي الـوقت في منـاقشـة الأفكـار والأحلام، كما فعلنا اليوم بفكرة سايد السوريالية.

كان الوقت ساعتها مـا بعد الـظهر، وكـان سايـد ورفاقـه متحلّقين كعادتهم في مثل هـذا الوقت، حـول طاولـة في مقهى DROP IN على الميدان.

- لَدَيَّ اقتراح عمليّ، قـال سايـد، وهو أن ننفّـذ ما تحـدثنا عنـه المرة الماضية فيجيء كل واحد منا بطعامـه ونتعشّىٰ على الميدان. ومن شاء أن يطلب أكله من مقهى أو مطعم فله ما يريد.

- فليكن ذلك هذا المساء، قال نافذ.

لكنهم اتفقـوا أخيراً على أن يكـون ذلك مسـاء الغـد حتى يتسنّىٰ لهم الإستعداد وتعميم الخبر.

كانت الصحف وصلت إلى إهدن، حوالى الساعة الحادية عشرة، حين نزل سايد إلى الميدان، فاشترى جريدة وجلس يقرأها كعادته في مقهى الـ «دروب إن».

الجريدة طبعاً عن حرب بيروت: معارك ضارية بالمدفعية، عشرات القتلىٰ والجرحىٰ، مهجّرون بالآلاف، مياهٌ مقطوعة، كهرباء مقطوعة، بنايات مدمّرة، سيارات محطّمة، غرْبُ بيروت يكاد يخلو من السكان، والهاربون من شرق بيروت أقل بكثير لأنّ قسماً كبيراً من سكانها لا يهرب إلا إلى قبرص، وقبرص يعني البحر، والبحر ليس طريقاً معبّداً.

تكاثر الأصحاب على الطاولة التي كان يجلس إليها سايد، وفي يد كل واحد منهم جريدة يستغرق في قراءتها، ودام الأمر هكذا طويلاً، إلى أن أبدى نافذ دهشته من خبر قرأه فقال:

- كيف يكون هذا؟ فهنا على الصفحة الثالثة خبر يفيد بأن طفلاً يلحق بأمّه راكضاً ليحتمي من القصف سقط في فوّهة مجرور لأن الفوّهة كانت مفتوحة ومغمورة بالمياه الوسخة التي كانت تفور منها، فغرق فيها واختفى، ولما تنبّهت أمه لغيابه، نادت عليه طويلاً لكن عبثاً، إلى أن ظهرت جثته على سطح الماء فوق الفوّهة. ثم وفي

الصفحة الرابعة، خبرٌ ينفي ما جاء في الصفحة الثالثة. فقال جميل:

- لا شك أن الخبر أعجب الصحفي كثيراً بحيث أنه لم يستطع منع نفسه عن نشره، وللأمانة المهنية نشر التكذيب في الصفحة التالية.

- نحن شعب نحبّ الفجيعة، أضاف جميل. فَطَيَّبَ له سايد. هنا وصل بطرس، ومن دون أن يجلس كما يفعل عادةً، قال بصوت منفعل:

- تمثال يوسف بك كرم مطبوع ثلاث مرّات على الأرض بالأزرق. فتصدّى له نافذ على الفور:

- لو بلغ العمر بك المئة عام سيبقى عقلك عقل ولد صغير!

- نعم مطبوع ثلاث مرّات! أصرّ بطرس.

- لا ليس مطبوعاً! بل مرسوم ثلاث مرّات!

- ما الفرق بين مطبوع ومرسوم؟!

- مطبوع قد يعني بأنّ الفاعل ربما كان جِنّاً.

- وما أدراك؟

هنا تطلّع بطرس إلى سايد وقال له:

- قُمْ لنراه.

- رأيته ـ قال سايد.

- كيف ذلك وأنت لا زلت صاحياً؟

فقام سايد، وقام نافذ، وقام الجميع وذهبوا إلى الكتلة.

الكتلة واحدة من ساحتين عامّتين في إهدن. الثانية الميدان.

لا يُطلق عليهما أبداً اسم ساحة.

أمّا الكتلة فمنبَسَطٌ عالٍ ومشرف، تقوم عليه كبرىٰ كنائس إهدن وساحتها. وهو مشرف من جهات ثلاث، أما الجهة الرابعة، الشرقية، فمنها الطريق الذي تربطه بالبلدة.

على الكتلة تمثالان: تمثال يوسف بك كرم راكب على حصانه، وهذا أُصيب، وتمثال للكاهن العلّامة جبرائيل الإهدني قرب باب الكنيسة. وهذا لم يجرِ لغط حوله.

بيده اليمنىٰ، يمسك يوسف بك كرم السيف وقد سحبه للتوّ من غمده.

كرم في لحظة ناريّة.

بوجهه يستقبل البحر، لكنّ عينيه إلى الجنوب.

أما لماذا ينظر إلى الجنوب... فتقديرات ذلك متعدّدة ومتناقضة. العاقلون يقولون إنّ عينه على قاديشا، وادي النُّسْك والقداسة، وعلى كتفها خاصة، حيث الدّيمان، مقرّ البطريركية المارونية. كرم لا يحيد نظره عنها.

على قاعدة التمثال كُتب إسمه بالعربية هكذا: تمثال بطل لبنان
يوسف بك كرم
(١٨٨٩/١٨٢٣)

وكُتب اسمه كذلك بالفرنسية لكن هكذا: Joseph Karam

تُرجم منه إذن اسمه الأول. ولا أحد يذكر أبداً أن لغطاً، أو نقاشاً، أو اعتراضاً جرى على هذا الموضوع.

أمّا الحصان الذي يمتطيه كرم فلا يبدو على الدرجة ذاتها من اليقظة والتهيّؤ، كأنّه كليل القائمة اليسرى، أو كأنّ المقصود من حركة رجله خلق علاقة ضدّية بينه وبين راكبه، فتَبِيْنُ هِمّةُ الفارس بتبيان وَهَنِ الحصان.

كامِلٌ تامٌّ على حصانه يوسف كرم، عينه على الهدف لا تحيد عنه، وفي الوقت ذاته، هو في أتمّ استعداد لضربةٍ مفاجئة تجيئه عن يمينٍ أو يسار. أمّا ظَهره فمحميّ. وهو مطمئنّ إليه. ظهره إلى الكنيسة.

والتمثال هذا كلّه من معدن، الفارس والحصان، وما على الفارس وما على الحصان، والسيف، وخصوصاً السيف، لأنّ السيف أصلاً من معدن. ورغم ذلك، فأربعة أشجار تظلّله، شجرة على كل زاوية من زوايا الحديقة الصغيرة المستطيلة التي تحيط بقاعدته، والشجر من النوع المقدّس، يشبه الأرز ويعمِّر مثله لكنّه ليس أرزاً. والحديقة مسوّرة، والسّور شبك حديد.

ورغم أن التمثال كله من معدن فهو مطليّ بالأسود.

أما الكنيسة، ففيها جثة الفارس ممدّدة في مدفن خاص، في قنطرة من قناطر الحائط الجنوبي، في القسم الخلفي من الكنيسة ـ القسم المخصّص للنساء ـ حيث كان من الممكن أن يقام مذبح ثانوي، أو تمثال لقدّيس.

وغطاء المدفن من زجاج شفّاف، يسمح لمن أراد أن يرى الجثة، ساعة يشاء، لكن

حتى يستطيع أن يراه مَن وَدّ ذلك، عليه أن يرتقي درجتين ليصير على الخشبة الطويلة الأفقية.

لا يستطيع أن يرى الفارسَ ممدداً إلا من أراد فعلاً أن يراه.

الجثة إذن ليست موضوعة في وسط مقاعد النساء. والنساء إذن لسْنَ متحلّقاتٍ حولها كأنّ الفارس مائتٌ من أمس. إنها في جهتهنّ فقط، إلى يمينهنّ.

أمّا الرجال فقدّام. ظهورهم إليه وإلى النساء. وهم حين يدخلون إلى الكنيسة فمن بابها في وسط الحائط الشمالي ـ أو ما يعتقده الناس أنه الوسط. وسايد يعرف ذلك ـ فيلتفتون عفوياً نحو المذبح إلى اليسار، والنساء والجثة إلى اليمين.

النساء يدخلن إلى الكنيسة من بابهنّ، من باب الكنيسة الخلفي، في وسط الحائط الغربي. في الوسط بالفعل. والباب هذا يطل مباشرةً على التمثال، لذلك، فهنّ حين يخرجن دفعةً واحدةً ـ حين يخرجن فقط، لأنّ الدخول لا يكون بالجمع صراحةً إلا في الجنازات ـ يبدو الفارس محاطاً بالنساء. فكل صباح بعد القدّاس، وكلّ عصر بعد الزّيّاح، يبدو الفارس كأنّه سابح فوق جمهرة من النساء.

. . . ويبدو الكاهن العلّامة محاطاً بالرجال.

. . . ولا أحد من الأهالي، أو من الزوّار، يرى في ذلك مفارقة. أمّا سايد فيحلو له أن يردّد أنّ البيك في جنازة دائمة. فيطيب هذا الرأي كثيراً لجميل، أما بطرس، فيترك الأمور تأخذ مجراها من دون أن يتدخّل، لكنه يعود بقوة عن صمته حين يأتي الحديث على جثة البيك، فيروح يكرّر ما يرويه المسنّون عن أنّ جثّته ليست محنّطة، بل طاهِرةٌ بالقداسة وتحميها طهارتُها من البِلىٰ. والعِلم يدعم رأيه. . . أو رأي الأهالي.

- هكذا يقولون! يردّد بطرس حين يهجم نافذ عليه متهماً إياه بخفة العقل.

- أستاذ مدرسة! يقول نافذ عن بطرس.

وهو فعلاً أستاذ مدرسة.

- أنت لست من هذا الكوكب. يردّ بطرس دائماً عليه.

على الكتلة كان غصوب بقامته المديدة، وسرواله العربي الذي يرفض إبداله بالبنطلون، يدور حول التمثال وظلاله. كان بادياً عليه أنه يعالج في رأسه أمراً خطيراً. وحين حيّاه بطرس أولاً لم يرد. وكذلك حين حيّاه الآخرون من رفاق بطرس. لكنه التفت إليهم بعد قليل وفاجأهم بالسؤال:

- ما هذا؟

من دون أن يشير إلى الظلال، لا بيده ولا برأسه، كأنّه يتحاشى مجابهتها.

ثلاثة ظلال لتمثال يوسف بك كرم يُحدِثها ضوء القمر مرسومةً على الأرض ـ كما يقول نافذ ـ أو مطبوعةً ـ كما يقول بطرس، باللون الأزرق، بمساحاتها الطبيعية، أي أكبر بقليل من الأصل، فتبدو لذلك، رغم أنها ثلاثٌ لو عُدّت ، كأنّها تُخفي غابةً من الفرسان على صهوات جيادها.

- إنّ شيئاً خطيراً يجري. قال غصوب.

ثم أشار إلى التمثال خلفه، من دون أن ينظر إليه، وقال:

- سنحتاج إليه قريباً جداً!

هنا لم يستطع بطرس منع نفسه عن استغلال المناسبة، فهو يحب سماع تلك القصّة التي يعرفها الكبير والصغير في البلدة. فظلّ يستدرج غصوب، بالتلميح والتصريح، حتى روىٰ لهم تلك الحادثة الشهيرة التي كان بطلها هو بنفسه، يوم أُزيح الستار عن تمثال يوسف بك كرم عام ١٩٣٢، وكان البطريرك يشدّ خيط الستار بيده، فعلق الخيط، ولم يعد ينزاح الستار، وكانت الناس بأعدادها الغفيرة تنتظر على نار أن يبين البيك على صهوة جواده.

يومها باتت الكتلة ضيّقةً بالناس لوفرة أعدادها، فامتلأت كلّ الشّرفات والسّطوح، وكل مكان في البلدة يطلّ على الكتلة، وكان بين الحضور الشخصيات، والأركان، وسفير فرنسا، وعندما امتنع الستار عن أن ينزاح، وكان يشدّه بيده بطريرك الموارنة، وعندما علت الأصوات، والناس على نار، غَزَلتْ قوّةٌ خارقة في غصوب، وحملته بكامل قامته إلى قاعدة التمثال.

بقفزةٍ واحدة.

وحرّر الخيط، وأزاح الستار فبانَ الحصان، ثم قفز قفزةً واحدةً أخرى ليصير على ظهر الحصان.

على ظهر حصان البيك يقاسم البيك حصانَه! وأكمل إزاحة الستار لينكشف الستار عن البيك بالذات. فصُدِم.

صُدم غصوب عندما وقع بصره على رأس كرم أمام وجهه يفصله عنه سنتمترات أو أقل. أحسّ للحظة أنه يفقد توازنه، كمن أغمض عينيه على بحرٍ ليفتحهما بعد ثانيةٍ على جبل.

فضم رأس البيك وقبّله.

وعلت لحظتَها هتافات الجموع.

ثم نزل عن ظهر الحصان إلى القاعدة ثانيةً، وأمسك بيده اليسرىٰ خصر البيك، وتناول باليمنىٰ مسدّسه من خصره وراح يطلق النار في اتجاه السماء، وعلى الفور سُمعت أصوات الإنفجارات الهائلة على رؤوس الجبال المحيطة بإهدن إذ كان الإهدنيون لغموا الجبال لتفجيرها في هذه اللحظة بالذات.

هنا، أخرج غصوب من جيبه محفظةً وفتحها ليخرج منها صورة مضبوبةً بعناية قصوىٰ وقال:

- أنظروا!

رجل طويل القامة يلبس سروالاً عربياً يقف على قاعدة التمثال، كأنّه من دون حذاء، يمسك بالبيك عند خصره بيد وبالأخرى يمسك مسدساً صغيراً، يلفت النظر كثيراً صغر حجمه، ويده هذه مرفوعة في اتجاه السماء في وضعيّة مُطلق النار.

السماء في الصورة واضحة جداً.

والصورة مأخوذة من خلف الرجل لا ريب في ذلك، لأنّ البادي فيها قفاه. ويظهر فيها أيضاً التمثال كله وكذلك القاعدة وما حولهما. لكن لا أثر إطلاقاً لشجرةٍ أو لسور حديدٍ أو لحديقةٍ كما هي الحال اليوم... التمثال على قاعدته في الساحة بدون حاجز أو عنصر تجميلي.

وتبدو السّاحة بوضوح معبّدة بالزّفت الأسود.

- سنحتاج إليه قريباً ـ عاد غصوب وكرّر وهو يعيد الصورة بعناية

إلى محفظته، مقابل صورة للسيّدة العذراء.

- سنحتاج إليه قريباً!

- أكيد! قال بطرس الذي حاكىٰ كأنّه لم يلحظ النظرة الغاضبة التي ألقاها عليه نافذ.

- لا تنسوا العشاء هذا المساء، قال جميل قبل أن يفترقوا.

كان سايد، عندما أفاق هذا الصباح، وقبل أن يذهب إلى الميدان ليقرأ جريدته، طلب من أمه أن تحضر له، للعشاء، طبخة مجدّرة، فتعجبت أمه من هذا الطلب، إذ لا اليوم يوم جمعة ولا أربعاء، ولا المجدّرة للعشاء.

- سأتعشّىٰ على الميدان، قال سايد.

- قل لي، الله يرضى عليك، ماذا تُفَبْرِك أنت وأصحابك؟ إنتبه يا إبني إنها أيام صعبة.

وأخبرته ما شاهدته هذا الصباح عند ذهابها إلى الكنيسة: تمثال يوسف بيك مطبوع على الأرض بالأزرق، ولا أحد يعرف كيف حدث ذلك، ولكنّ الناس تقول إنّ هذا نذيرٌ بأنّ أحداثاً عظيمةً ستقع، إذ عندما يكون لبنان والموارنة في خطر فإنّ حديد تمثال البيك يضيق به.

وأخبرته أيضاً أنّ امرأة قالت لها، خلاف ذلك، أنّ هذا الأزرق هو لتثبيت البيك بالأرض فلا يعود قادراً على الحركة، فلا يهبّ لنجدتنا.

- الله بيعرف!

وكرّرت عليه رجاءها له بأن يكون متعقّلاً، لأنّ عجائب كثيرة تحدث في هذه الأيام، وعلامات عظيمة لا يعرف معناها إلا ذوو العلم بالأسرار، ويقال أيضاً إنّ أشباحاً تَرُودُ، أثناء الليل، طرقات إهدن

ومجالاتها.

وعندما عاد سايد المساءَ إلى البيت كان كلّ شيء جاهزاً: المجدّرة، والخبز، والبصلة، وحبّة الزيتون.

- ذكَّرْتَني بأيام زمان، بالزوّادة التي كنت أحضرها لأبيك ليأخذها معه إلى الشغل. ما كان أجمل تلك الأيام!

- أتعتقدين أنّها كانت أجمل من الآن؟

- ألآن!؟ هذه الأيام الحرب؟!

- ألا تذكرين كم حرب مرّت عليك من يوم وُلدتِ؟ أنا أذكر واحدةً منها، عام ١٩٥٨!

فهزّت أم سايد برأسها.

ثمّ ذكَّرها بأنّها لم تحضِّر له كأساً، فأجابته بأنّها لم تنسَ لكنّها خافت أن يشرب كثيراً ويسكر.

- كأنّك لا تعرفينني أبداً! فأنا من هذه الناحية أشبه أبي، لم أسكر مرّةً في حياتي. أين طارق؟

- تريد أن تأخذ ابنك معك؟! هذا طفل لا يستطيع أن يسهر.

- هي مَرّة.

عند الثامنة مساءً كان سايد وابنه طارق على الميدان في مقهى كعدو الواقعة إلى جانب مقهى «الدروب إن» تماماً.

كعدو لا يستقبل الزبائن المساء أو في الليل، لكنه يترك الطاولات والكراسي كما هي في القسم الخارجي من المقهى تحت شجرات الدّلب فلا يجمعها ولا ينقلها إلى الداخل.

جلس سايد وابنه طارق إلى أوّل طاولة لجهة الميدان، ووضع الأكل عليها: قِدْرٌ مليئةٌ بالمجدّرة ـ مجدّرة بلوبياء. أكلةٌ إهدنيّة أصيلة: حَبٌّ لوبياء أحمر، مع برغل، وبصلة مفرومة مقلّاة بزيت الزيتون. وصحن مليء بالزّيتون المكبوس، وبصلة نيّئة ضربها سايد بيده على ركبته لتنفلق، بدل أن يقصّها بالسّكين. هكذا كان يفعل الجُدود. وخبزٌ مرقوقٌ شغل يدي الوالدة. وكأسٌ له وكأسٌ لابنه. وعَرَق بلديّ من عنب الكروم البعليّة الواقعة على المنحدر الشمالي لجبل السيّدة، البُعُول.

هذه ليلة إهدنيّة أصيلة!

وشمعة أحضرها كعدو الذي كان على علم بالعشاء فاستعدّ له خصيصاً لأنّه عادةً لا يقدّم في مقهاه طعاماً ولا شراباً إلا القهوة لزبائنه من لاعبي البيلوت.

أما الماء فمن حنفيّة الميدان الباردة كالثلج، الآتية من نبع مار سركيس، حمله إليه كعدو في إبريق من زجاج شفّاف قائلاً له:

- إشربْ من هذا الماء الذي خصّنا الله به!

- بَبِّي! نادىٰ طارق والده - ألا يوجد ماءٌ باردٌ هكذا إلا عندنا في إهدن؟

فأجابه كعدو:

- هذا أشرف ماء!

ثم تابع موجّهاً كلامه إلى سايد، فأخبره، أنه ذات يوم ـ قبل بداية الحرب عام ١٩٧٥ ـ مرّ به رجل لم يره أبداً من قبل، فقدّم له كعدو كبّاية من هذا الماء وفنجان قهوة، فشرب الرجل الماء، وأغمض عينيه وقال: بعد هذا الماء حرام أن يُلامِسَ شيءٌ مهما سَمَا لسانَ الإنسان! ليتكم تستطيعون إعطاءنا نبعاً من ينابيعكم لنعطيكم ما عندنا في السعودية من نفط!

- أرض مباركة! قال كعدو.

مرّةً، في أوائل الربيع، كنت ذاهباً لألقي نظرةً على بستان التفاح، فالتقيت رجلاً أجنبياً يتمشّىٰ وهو يتطلّع مندهشاً إلى هذه الدنيا، فتقدّمت منه وسألته إن كان بحاجة لشيء، فأجابني بسؤال فقال: أيموت الناس عندكم؟

هنا صمت كعدو لحظةً وهو يروي الحادثة، ثم تابع فقال:

- جاءني أن أقول له: لا! إنّما نهاجر أو نُقْتَل! لكنّي سكتّ!

في هذه الأثناء، وصل بطرس، وتقدّم من سايد، وقال له:

- إذن نتعشّىٰ هنا!

وبدأ الناس يجيئون بخجلٍ أولاً، لا يحملون معهم شيئاً، ليتأكّدوا من جدّية المشروع، ثم يغيبون ليعودوا بعشائهم.

وعند التاسعة امتلأت المقاهي، مقهى كعدو، ومقهى «الدروب إن»، ومقهى صوطو. وتوزّع الناس الطاولات. منهم من جلب معه عشاءه ومنهم من طلب عشاءً. وأغلب هؤلاء اشتكوا من غلاء الأسعار. اشتكوا كثيراً.

وفجأةً دوّىٰ النشيد الـوطني اللبناني من مسجلة كبيـرة وضعت في منتصف الميدان، فوقف الحاضرون تلقائياً.

نافذ الذي كان جـالساً إلى طـاولة سـايد انتفض. لم يكن يتـوقع ذلك. وكذلك سايد.

دُهش طـارق لمّا رأى النـاس يقفون من دون أن يفقـه شيئاً ممـا يحـدث، وهَمَّ بسؤال أبيه. لكنّ أبـاه كان مستغـرقاً في تـأدية الإحتـرام للنشيد الوطني.

وصفّق النـاس لمّـا انتهىٰ النشيـد، وانـطلقت زغـردات من عمق حنـاجر نسـاء لم يكن أحد يتـوقع حضـورهنّ. لأن الحاضـرات كنّ من جيلٍ لا يزغرد في الغالب.

كـانت النسوة اللواتي زغْـرَدن واقفـات متفـرّجـات، على أطـراف الميدان.

وبعد النشيد الوطني، انطلق من المسجّلة صوت فيروز:

... بْـمَـجْـدك احـتَـمـيْـتْ بـتـرابـك الـجَـنِّـي
عـا إسـمَـكْ غَـنّـيْـتْ عـا إسـمـكْ راح غَـنّـي
وأحمُلْ بإيدي كاسَـكْ المِلْيَانْ وأرفعـوا لَفَوْق، لَفَـوْقْ، لَفَوْقْ
لَمَـطْرحْ الّلي بيـوقف الـزّمـانْ وإسْكَرْ بإسمَـكْ مَجْدْ يـا لبنانْ

- هـذه أول مرة يـأخذ عنـدي النشيد الـوطني هذا المعنىٰ! قـال نافذ.

- وأنا كذلك! قال سايد.

- بَبِّي! لماذا؟ سأل طارق.

- لماذا أَيْش، قال سايد.

- لم أكن أتوقع أن يحضر هذا العدد الهائل من الناس! قال نافذ.

- بَبِّي! لماذا؟ سأل طارق.

- لماذا أَيْش، قال سايد.

كان جبّور يجلس مع زوجته وابنته وجوزاف، نَصِير البيئة، وأولاده الثلاثة ألى طاولة قرب طاولة سايد، لكنّ طعامهم كان خاصاً: أنواع من الجبنة الفرنسية، ونبيذ فرنسي. وعلى أعناق قناني النبيذ المفتوحة محارم بيضاء معقودة، كمَا العشاءات الفخمة، لئلا تستأنف دمعة نبيذ على القنينة فتبلغ وجه الطاولة!

تراز، زوجة جبّور، كانت أول من تقدّم من طاولة سايد وأكلت لقمة مجدّرة! ثم تمثّل بها زوجها جبّور، ثم الآخرون، ثم أوفد سايد ابنه إلى البيت ليأتي بما تبقّىٰ من مجدّرة.

كان طارق قبل أن يذهب إلى البيت ليأتي بالمجدّرة، يرجو والده أن يسكب له كأساً ثانيةً من العرق، وكان والده يرفض، ويسكب له ماءً بدل العرق، لكنه بعد هذه الخدمة لم يعد يستطيع الرفض فسكب له كأساً ثانية. قليلٌ من العرق كثيرٌ من الماء.

- كاسَكْ! قال طارق رافعاً كأسه.

كانت السعادة تشعّ من وجه نافذ وهو يرىٰ حوله ما يرىٰ. لم يكن يتوقّع أبداً أن يجيء هذا القدر من الناس. أن تمتلىء المقاهي وتُفرش البُسُط في منتصف الميدان.

ويعرف نافذ ـ بالنّظر على الأقل ـ كلّ الحاضرين، لكنه لم يرهم أبداً من قبل هكذا. فبعضهم قام يغنّي وبعضهم رقص.

- هذه حفلة لم نحضّرها عملياً... أفتتصوّر كيف سيكون الأمر ليلة مجيء سامي. أنا أكيد أنّ البلدة ستجنّ!

- الليلة هذه بالنسبة لي مفاجأة كبيرة. يجب الإتصال بسامي من جديد واستعجاله.

وبينما كان الميدان يموج بالناس والمفاجآت والدهشة، بلغ الأسماعَ صوتُ طبلٍ يقرع بعيداً.

لكن يقترب!

وبقدر ما كان الصوت يقترب بقدر ما كان الميدان يهدأ، ويزداد هدوءاً، حتىٰ خَبَا كلّ صوتٍ وتوقّفت كلّ حركة.

وقبل أن يبلغ الطبل الميدان بخطوات، باتت الناس كأنّها انخطفت كينونتُها، وأُفرغت أجسادها من ثقلها، فلو هَبَّ هواءٌ حَمَلها.

الطّبل الآن صراحةً على الميدان! إنّه يخضّ الأعماق. إنّه الفرح النّاري. الأرض تلين لتموج على وقع صوته.

واندفع الصِّبْية نحوه، يتبعهم البالغون.

وبدأت بعض الأيادي تشبك ببعض الأيادي الأخرى استعداداً للدبكة. لكنّ رجلاً ليس من المشاركين في العشاء، ظلّ يسعى حتى بلغ ضارب الطبل فأوقفه وصاح بقوّة ليسمعه المتحلّقون حول الطبل والمنتشرون على الميدان جميعاً:

- هذا ليس وقت طبل.

وتكاثر الناس، المشاركون في العشاء وغير المشاركين، وانقسموا. قِلّةٌ مع الضرب بالطبل، والآخرون الأكثرية يعارضون.

سايد، وجميع رفاقه عملياً، كانوا مع الحسم سريعاً لصالح الأكثرية المعترضة، لئلا تتطوّر الأمور إلى الأسوأ، وربما كان الأسوأ الكارثة. وانتهى الأمر بسحب الطبل.

- كُلُوا وتسلّوا ـ قال الرجل ـ لكن هذا ليس وقت طبل.

رغم أنّ التفاح أهم مواسم الإهدنيين، فلا أحد يسمع إهدنياً يصف شجرة التفاح بأنها جميلة.

فشجرة التفاح إمّا تعطي فيكون الموسم مليحاً، وإمّا لا تعطي فيكون الموسم سيئاً. إنها شجرة للاستثمار وحسب. وهي من الرّكاكة بحيث أنها بحاجة لعناية مستمرّة: تنقية، ورشّ، وفِلاحة، وريّ، وسماد.

لا تعمّر شجرة التفاح. بضع عشرات من السنين ومن ثَمّ تشيخ فلا يُسمَع إهدنيّ يقول: تحت هذه التفاحة ارتاح جدّي!

إنها شجرة لا تشهد على شيء. إنها شجرة زائلة وليست دائمة. فليس من تفاحة واحدة في إهدن، من بين الألوف المؤلّفة من أعدادها، شهدت معركة، أو شهدت ببطولة.

وعاصفة تؤذيها، سريعة العطب هيِّنة على العناصر. جذعها لا يسند سقفاً، حطبها كالقش اليابس يحترق سريعاً ولا يرمي جمراً.

وليس لخشب التفاح عطر شجر الأرز!

الأرز شجر نبيل. يعمّر وجميل وقويّ ومقدّس.

يوسِّطه الموارنة في صلواتهم لدى الله ليستجيب لهم: يا أرزة

لبنان تضرَّعي لأجلنا.

وفي إهـدن شجرة أرز واحـدة يستطيـع أن يفخـر بهـا الإهـدني، عمرها آلاف السنين، ضخمة الجذع ممتدّة الغصون عـالية هـادئة ثـابتة نبيلة، كإلٰهٍ أسطوريّ، تشرف على وادي قزحَيّا وقاديشا معاً.

هذه الأرزة الواقعة شرق إهدن، غير بعيد عن نبع مـار سركيس، يروي عنها الإهدنيون أخباراً عجائبية؛ فقد أُضـرمت فيها النيـران مرّات عديدة لكنها لم تحترق أبداً! حيَّرت غُزاةً وأغاظت غزاة لما فيها من عزّةٍ وكبـرياء ولمـا لها من حُسن، فكـانوا يعمـدون إلى إشعـال النـار فيهـا، فتشتعل كلّها باللهب من أسفل جذعها حتى أطراف أغصانهـا وأعاليهـا، لكنّ ورقـة واحدة منهـا لم تكن تحترق، فليس هـو إلا بعض وقتٍ حتى تنطفىء النار المشتعلة، وتعـود الأرزة بهيّةً كـأنّها لا زالت مغتسلةً بمـطر أطراف أيلول.

لا يـطول المـطر في أيلول، فتـأتي الشمس بعـده فتتـلألأ الأرض كالمرايا، وتقترب المسافات بين الأشياء لشدّة الوضوح.

هـذه الأرزة بالـذات، إزرقَّ ظلّهـا ذات صبـاح، بعـد فتـرةٍ على ازرقـاق ظِلال كَـرَم. واكتشف الأمـر أبو حليم الـذي كان ذاهبـاً إلى حقله القريب منها في الصباح الباكر.

قليلاً ما يفيق الإهـدنيّون إلى أرزتهم في أيـام المِحن، وهم عادةً لا يفخرون بها بشكل أساسي، فغابة أرز الربّ فوق بشرّي طاغية بالعزّ، وبشرّي ـ البلدة المارونيـة الأخرى ـ قـريبة منهم، كيلومتـرات وحسب، على المقلب الآخر للجبل المقابل.

ورغم أن المشاعر بين أهالي البلدتين، لا يمكن وصفها بـالمحبّة

والاحترام، بحيث أنه يوجد في إهدن، وكذلك في بشرّي، مَنْ لا يجد طعماً لتفاح البلدة الأخرى. والبلدتان تنعمان بالشمس والماء والتربة الصالحة للزراعة، أي بكل شروط التفاح الطيّب.

ورغم هذه المشاعر المتبادلة إذاً، فإن الإهدنيين يحنون الرأس لأرز الربّ، ويتمنّون لو كانوا أكثر قرباً من أقدامه.

لكن ما حدث هذه المرة لأرزتهم، شغل بالهم وأعاد إليها اهتمامهم. فهذه الأرزة التي تعرف كيف تدافع عن نفسها، والتي صمدت على ممرّ المئات بل الألوف من السنين، لم تكن هذه المرّة كما عوّدتهم. أفيمكن هذا؟!

فكيف يَزْرَقُّ ظلّها؟! أهو عمل جِنٍّ أم إنس؟!

الحقيقة أنّ هذا الأزرق بدأ يشغل فعلاً بال الإهدنيين.

أم سايد قالت لابنها سايد أنّ هذا الأزرق تدنيسٌ للسّماء... فالسّماء هي المشلح الذي يغطي جسد العذراء.

وأم سايد لا تزال تردّد لابنها أنّ هذا الأزرق نذيرٌ بالشرّ، وهي لا تزال تسأل وتتساءل عمّا يفعله ابنها وأصحابه خارج البيت طوال الليل وأحياناً حتى بزوغ الفجر، ولا تزال تردّد أنّ أرواحاً تَرودُ طرقات البلدة في العتمة والليل، وأنّ الكهنة يدعون إلى الصلاة والإحتماء بالعذراء مريم، وأنّ الشباب في البلدة يستعدّون، وأنّ الله لا يترك شعبه، وأنّ العذراء مريم ذات المشلح الأزرق السّماوي لا تتخلّىٰ عن أبنائها.

كانت أمي تنهض في الصباح، تقول أم سايد، أيام الشتاء والثلج، فتجرف بالرّفش طريقاً لها حتى تستطيع الخروج إلى الكنيسة

لتسمع القدّاس، كنت صغيرةً وكانت تصطحبني معها، فتحملني أغلب الدرب أحياناً حتى لا تزلق رجلي على الجليد، وحتى يبلغني لهاثها الدافىء. أفيريدون منّا الآن أن نهجر بيوتنا بعدما دَفِىءَ شتاؤنا؟ وكنت طفلةً وعمري خمس سنوات حين كانت ترسلني أمي لآخذ الزوّادة إلى أبي. كنت أتسلّق أَشْيَاراً لو هَبَّ هواءٌ رماني إلى أسفل الوادي! أفيريدون منّا الآن أن نهجر حقولنا بعدما بلغتها الطرقات المعبّدة؟!

إسمعْ يا بنيّ:

- عُدْ إلى أميركا، ولو لوقت، واترك ابنك لي فأنا أهتمّ به، أو عُدْ باكراً في المساء إلى البيت في هذه الأيام.

فماذا يجيب سايد أمّه؟! ماذا يقول لها؟! أو بالأحرىٰ كيف يقول لها؟!

السياسة!

السياسة يا أمي أنتِ ضحيّتها ودفء شتائك وسهولة دربك!

كيف يستطيع سايد أن يشرح لأمّه أنّ السياسة فنّ مستقل كما أنواع العلوم والفنون. وأنّ السياسة سيّدة نفسها تستلهم في حركتها ذاتَها، وأنّ الناس أحجارُ رقعتها بهم تصير ومنهم تغتذي، وأنّ دفء الشتاء أمر ثانوي لاتأخذه بعين الإعتبار، إلا حين تحتاج إليه؟!

وما نفع هذا الكلام والحرب منذ أربعة عشر عاماً تأتي على الأمكنة كلّها تشعلها فتحترق؟!

كان سايد يدرك جيّداً أنّ والدته تتمنّى لو ينصرف هذه الأيام إلى إلى المرأة الأرملة التي يتردّد عليها.

أم سايد كانت تُظهر جهلاً كليّاً بالأمر، لكن سايد كان مقتنعاً، إستناداً إلى إشارات كثيرة، أنّ أمّه على علم بهذه العلاقة التي ترفضها رفضاً قاطعاً. إذ هي لا تترك مناسبة تمرّ من دون أن تنتهزها لتمرِّر رغبتها بوجوب زواجه مرّةً ثانية، ومن فتاة صبيّة عزباء يبني معها مستقبلاً جديداً.

- ماشي!

يقتصد سايد في الكلام حين يكون موقناً بلا جدواه. تعرف والدته ذلك، وتعرف أيضاً أنّ اقتصاده هذا يعود أحياناً إلى توتّرٍ في نفسه.

أمّا التوتر فكان بادياً عليه بوضوح هذا المساء، إذ فور عودته إتجه إلى المطبخ حيث كانت أمه تحضّر العشاء على ضوء شمعة فسألها رأساً، وقبل أن يُمسِّيها، عن ابنه طارق، ولمّا أجابته بأنه في الغرفة يلعب، بدأ يناديه قبل أن يستدير للبحث عنه، وكان صوته يرتفع كلّ مرة عن المرة السابقة حتى كاد يبلغ الصراخ قبيل باب الغرفة وقبل أن يجيبه طارق:

- بَبِّي!

- لماذا لا تجيب! قال سايد بعصبية.

لكنّ درجة غضبه هبطت بسرعة، فسأله إن كان تعشّىٰ فأجابه بلا.

- تعالَ إذن نتعشّىٰ.

وعاد إلى المطبخ يسبقه ابنه الذي سرعان ما بادر جدّته بالسؤال:

- ستّي، أيش العشاء؟

فأجابته بصوت معتذرٍ أنّها لم تشترِ لحماً هذا الصباح لأنّ اليوم جمعة. ووعدته بأن تطبخ له غداً السبت باللحم.

- أريد أن أشرب كأساً، قال سايد.

- وأنا كذلك، قال طارق.

- هاتِ إذن نحضِّر كأسنا.

وضعت أم سايد على الطاولة صحن بطاطا مسلوقة وممعوسة مع نتفة بصل مقلّىٰ بزيت الزيتون، ورغيفين من الخبز، وبضعة مقْطيات مكبوسة.

طارق جاء بالكأسين وبقنّينة العرق البلدي.

- نسيتَ الماء، قال سايد لابنه.

فعاد طارق وجاء بإبريق الماء.

وبعدما استقرّ الاثنان على كرسيَّيْهما رفع سايد كأسه وقال لطارق:

- كاسَك.

وارتفعت الكأسان لتتلامسا، ثمّ ارتفعتا قليلاً قبل أن تفترقا. وشرب طارق وهو ينظر من فوق كأسه إلى والده، وشرب سايد وهو ينظر من فوق كأسه إلى ولده، وأتبعا الجرعة بكدشة مقطي.

- نسينا الجبنة الضّرْفيّة. قال سايد.

- ماشي الحال هيك. قال طارق.

- لا! أصرَّ سايد.

فتململ طارق على كرسيّه، فعاجله والده:

- قد ننهي عشاءنا قبل أن تحسم أمرك.

في هذا الوقت وصلت أم سايد وبيدها صحن صغير عليه قليل من الجبنة الضّرفيّة وقالت وهي تضعه على الطاولة:

- لم يبق إلا هذه النّتفة. غداً نشتري.

وبعد لحظاتٍ صَمَتَ أثناءها الجميع فعلياً، قالت أم سايد:

- دعونا نسمع الأخبار لنرى أين وصلت الحالة في بيروت.

- هاتِ الراديو. قال سايد لطارق.

فقام طارق وذهب يبحث عن الراديو، وعاد بها وقد أدارها.

- لماذا أدرتَ الراديو؟ قال سايد ـ عشر دقائق بعد حتى تبدأ نشرة الأخبار، يعني تكون البطارية فرغت!

هنا أيضاً صمت الجميع لحظات، كانت أم سايد أثناءها تتأمل الشمعة وقد صارت على آخرها. وقطع طارق الصمت عندما سأل:

- بَبِّي! أنت تؤمن بالله؟

فاحمرَّ وجه جدّته على الفور، وكاد يطفح منه الدم، ورسمت على وجهها شارة الصليب وعاجلته بالقول:

- كيف لا؟! وهل هناك بشرٌ لا يؤمن بالله! البهيمة وحدها لا تؤمن بالله لأنه لا عقل لها!

- صحيح يا بَبِّي. قال طارق.

فلم يجب الوالد بشيء. لكنّ الجدّة عادت إلى الكلام:

- أنت يا طارق لم تبلغ بعد العاشرة، فلا يحق لك الكلام في هذا الموضوع.

- الكلام في هذا الموضوع للكبار فقط؟

- لا للكبار ولا للصغار!

- بيِّي! لماذا ليس للعقل بهيمة؟

- كيف هذا... للعقل بهيمة؟قالت الجدة.

فضحك طارق إذ تنبّه لخطأه فصحّح:

- لماذا ليس للبهيمة عقل؟

السابعة تماماً فتح سايد الراديو على إذاعة مونت كارلو. كانت تبثّ الموسيقىٰ التي تعلن نشرة الأخبار.

الخبر الأول في الموجز كان عن إبحار حاملة الطائرات الفرنسية كليمنصو نحو الشواطىء اللبنانية.

أما الأخبار الأخرى فكانت عن معارك سوق الغرب قرب بيروت، وعن الجبهات الأخرى. آلاف القذائف على المناطق السكنية في بيروت وضواحيها. عشرات القتلىٰ ومئات الجرحى. مئات من المباني المدمّرة والسيارات والممتلكات الأخرى. وعشرات الألوف يهربون من جحيم المعارك.

- لو يقطع الله جنسهم! هذه كانت ردة فعل أم سايد بعد أن انتهى الموجز.

كان توقُّع سايد في محله، فقد انتظر أن يذكِّرها خبر حاملة

الطائرات الفرنسية بزوجته الفرنسية.

- ما حَدَا لحَدَا!

ألقت أم سايد هذه العبارة بينما كانت الإذاعة تفصّل خبر حاملة الطائرات.

- لا يسألون عن أولادهم الذين من بطونهم فكيف سيسألون عنّا!

كاد سايد يرفع صوته في وجهها لكي تصمت، وحجّته أنه يريد سماع الأخبار. لكنها تداركت الأمر قبل أن تنزلق عبارة سايد عن لسانه، فلجمت غضبها على الفرنسيين وسكتت.

سايد يعتبر أنّ الحديث مع أمّه في موضوع طلاقه انتهى، من زمان. وهي لم تعد تجيء أبداً على ذكر الموضوع صراحةً، في حضوره على الأقل.

لكنها الآن، وبعد أن انتهت نشرة الأخبار، فلا يستطيع ولدها أن يأخذ عليها التعليق على قرار الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بأمر كليمنصو بالإبحار نحو الشواطىء اللبنانية.

- لو كانوا يريدون مساعدتنا لساعدونا في القرن الماضي يوم تخلّوا عن يوسف بك كرم.

كانت أم سايد متجهّمة الوجه وهي تعود بشمعة جديدة حاولت إشعالها من الشمعة التي كانت على آخرها، وبدل أن تشتعل الشمعة الجديدة، انطفأت القديمة، فأثبتتها مكانها مستنيرةً بعود كبريت قدّمته وأشعلت به الشمعة قبل أن تطفئه وتضعه على الصحن.

- بَبِّي، قالت جدّتي أنّه عليّ أن أكتب إلى أمي حتى تأخذني

لعندها إلى فرنسا فأبقى هناك وأتعلّم حتى تنتهي الحرب.

- لا. قال سايد بغضب.

كان طارق وهو يسأل والـده هذا السؤال، يمـدّ يده ويتنـاول العود الكبـريت المنطفىء الـذي وضعته جـدّته على صحن الشمعـة ويحـاول إشعال رأسه الأسـود المحترق من لهبـة الشمعة التي كـانت تنوس كلمـا قرّبه منها.

- طارق! أبْعِدْ يدك عن الشمعة. قال سايد.

لكنّ طـارق لم يكن يقدّر مـدىٰ الغضب الذي كـان يتضمّنه قـول أبيه، فظلّ يتابع محـاولته، وفي كـل مرة كـانت تنوس اللهبـة حتى تكاد تنـطفىء، فما كـان من والده إلا أن ضـربـه على يـده التي يمسـك بهـا العـود، فوقعت الشمعـة على الطاولـة من دون أن تنطفىء... فـأذابت لُهبتُها حيث لامست شرشف النايلون، قبل أن يسارع سايد إلى رفعها.

- انْبَسَطتْ!؟

لم يجب طارق بشيء، ولم يبك، لكنه سكت، وظلّ سـاكتاً إلى أن قالت الجدة:

- هـل صحيح أنّ حفلةً ستُقـام على الميـدان؟ سمعت أنّ مغنّيـاً سيغنّي على الميدان! أيجوز ذلك والناس يموتون وتخرب بيوتهم.

لم تنظّف أم سايـد الطاولـة، بل تـركتها كمـا هي، وخرجت إلى قدّام الباب وجلست على المقعـد مكتّفةً يـديها متـأمّلةً أمامهـا سلاسـل

الجبال والوديان الغارقة بضوء القمر والظلال.

في البعيد، صوب جرود البترون وجبيل، كانت أضواء القنابل تشتعل وتختفي لتتبعها بعد لحظات، أصداء الإنفجارات.

بعد دقائق، خرج طارق وجلس قربها ملتصقاً بها متأمّلاً مثلها بصمت.

ولما خرج سايد قطعت أم سايد صمتها قائلة:

- سمعت من يقول إنّ الشمس في بعض البلدان تشرق من صوب البحر! أيمكن أن تشرق الشمس مبتلّة؟!

حين تطلّ الشمس يجب أن تكون عاليةً، من فوق الأعالي، ثم تنام تحت، خلف الماء.

أإلىٰ هذه البلدان المعكوسة ستنقلنا البواخر التي يتحدّثون عنها؟! هذه البواخر التي يُقال إنّ دولاً ترسلها إلينا نحن المسيحيين لتنقلنا من لبنان؟! أيهودٌ نحن مستوطنون؟!

وهل ستنقل الموتىٰ أيضاً هذه البواخر؟! موتىٰ اليوم وموتىٰ الأمس وموتىٰ أمس الأمس.

- ماشي!

قال سايد وهو يراها في غضبها المكبوت.

وماذا يستطيع أن يقول لها أكثر من ذلك، وهو الذي كرّر عليها مرّات ومرّات أنّ هذه الأخبار ما هي إلا لاستثارة مشاعر المسيحيين ودفعهم إلى القتال بما يخدم إسرائيل.

- فليقطع الله جنس أميركا وجنس إسرائيل!

وأراد سايد هنا أن يسلّي والدته فقال:

- إنّ مدينة نيويورك حيث يقيم أولادك، تستقبل الشمس من جهة البحر.

- ليتها تُدمّر! أجابت الوالدة.

- بَبِّي! تدخّل طارق - لماذا سمّيتني بهذا الإسم؟

فلم يجب سايد بشيء. لكنه قبل أن يتحرّك نحو الميدان قال لابنه ألاّ يطيل السهر.

- ما عليك. أجابت الوالدة.

إتجه سايد نحو الميدان، وهو لو اتخذ الجهة المعاكسة لجعل والدته بالتأكيد، تشعر بالإرتياح. فهو موقن من ذلك. فأمّه لا تريده أن يذهب إلى الميدان حيث يلتقي أصحابه ويتحدث معهم بأمور تثير حولهم الشّبهات، وهذه الشبهات تبلغها بواسطة الجيران، أو بواسطة النسوة اللواتي تلتقيهنّ في الكنيسة.

أمّا الجهة المعاكسة التي كانت الوالدة تتمنّىٰ لو أن ابنها يتخذها، فهي الطريق الموصلة إلى بيت المرأة الأرملة التي يتردّد عليها.

لكنّ الوالدة لا تعرف أنّ الطريقين، وإن كانا متعاكسين، يلتقيان في حال توفّر الرغبة. وهي لا تعرف أنه كان بالأمس عندها، عند صاحبته الأرملة التي لم تستقبله كما تستقبله في العادة. فحين وصل عند شبّاك بيتها، وكان الليل تقدّم، والكهرباء مقطوعة، ودروب البلدة لا أثر لأنسٍ فيها، لاحظ من خلال الثقوب نوراً منبعثاً من شمعة لا تزال مُضاءة، فتساءل ثم تقدّم على مهلٍ ودقّ بيده دقّاً خفيفاً على

الشبّاك، كما يدقّ عادةً، فجاءه صوتها من الداخل مهموساً: اليوم لا! فألحّ، فأصرّت. لكنّها فتحت أخيراً، ولمّا صار في الداخل، سألها عن أمر الشمعة فقالت إنها للعذراء. ثم أخذها بين ذراعيه فمانعت وابتعدت عنه.

- ماذا؟ ألم تنم ابنتكِ؟

- بلىٰ!

- ماذا إذن؟

فقالت إنها خائفة، وأنّ الأزرق يغزو الظلال، وأنّ الكَهَنة في الكنائس يدعون إلى الله، وأنّ النّاطور جرى اليوم في الطرقات وهو يصيح في الناس أنّ ما يحدث غضبٌ من الله وأنّ على الناس صَوْن أعراضهم.

كانت في ثياب النوم وكان يتأملها ويوقف نظره عند ما عَري من صدرها حيث أصل الثّديين، وكان نور الشمعة الموضوعة في ركن من البيت ينير جهةً من وجهها ويُبقي الجهة الأخرى في الظل. وثوبها النوم رقيق يكاد يكون شفّافاً. فأخذها مرّةً أخرى ومنعها من الإفلات، وشمّ، وهو يتفرّس في عينيها، رائحتها التي تفوح منها عندما تتهيّأ للنوم، وقرّب فمه ليقبّلها لكنّها أبعدت وجهها وأمالته نحو الكتف.

- أرجوك! قالت.

- أنتِ لا يصيبكِ غضب الربّ!

- أرجوك، قالت. فأنا غير قادرة اليوم، أنا مضطربة وخائفة، عُدْ غداً أو بعد غد.

- تحبّينني إذن، لكن ليس في أيام المِحن.

- لو كنت تحبّني كما أحبّك لما أصابَ مني كلام الناطور!

فتح سايد الباب، وتطلّع قبل أن يخرج إلى اليمين وإلى اليسار ليتأكّد من خلوّ المكان، وخرج. وبعد أمتار، وقد بات صراحةً على الطريق، سمع وقع خطىً وراءه، فلم يلتفت، بل تابع طريقه، لكن من دون أن يسرع أو أن يتمهّل. وحين وصل إلى الميدان، والخُطىٰ لا تزال تجري وراءه، انعطف بسرعة واختبأ وراء جذع دلبةٍ وانتظر: عابِرٌ لم يستطع معرفته بوضوح في تلك العتمة، ولم يستطع أن يتبيّن ما إذا كان يحمل سلاحاً أم لا.

ثمّ ظلّ هذا العابر متابعاً طريقه لا يلتفت إلى يمين أو يسار ولا إلى الخلف بالتأكيد.

كان الميدان معتماً.

ما إن وصل سايد إلى مقهى «الـدروب إنْ» واستقرّ على كـرسيّ، شاردَ الذهن يستغرقه قلق والدته، حتى وصل جميل.

جميـل يسكن مع أهله في الـطابق الأعلى من المبنىٰ المؤلّف من ثلاث طبقات، على الزاوية الشرقية الجنوبية للميـدان، فما عليـه إلا أن يطلّ من الشبّاك أو من على البلكون حتى يرى ما إن كان حضر أحدٌ من الشباب أم لا.

سايد يصف حبّ جميل لإهدن بـأنّه خُـرافيّ، ويرىٰ أن مبعث هـذا الحب قلق على المكـان. فلذلك انتقـل جميل من المـوسيقى إلى الرّسم. الرّسم يخلّد المكان.

أمّا جميل فيصوغ الأمر بشكل مختلف، فيقول إنه ـ لسببٍ يجهله ـ لم يستطع بالموسيقىٰ التي تعلّمها هناك في نيويورك قولَ نَبْض الجبـل كما يشتهي، وإنّه لذلك عمد إلى الرّسم.

وراح جميل يرسم، بالماء خصوصاً وبـالزيت أيضـاً، كلَّ مـا تقع عليـه عينه، فـرسم الجبال، ورسم الـوديان، ورسم الليـل ورسم النهار ورسم الربيع ورسم الفصول الأخرىٰ، ورسم خصوصاً البيوت الحجرية القديمة التي لا تزال أنفاسُ الأجداد تدفىء أنحاءَها. ورسم أيضاً الأبنية الحـديثة المبنيّـة بالبـاطون المسلّح، وألـحّ على البيوت التي تبـدو أبداً

بشكلها الناقص غير الناجز: سطحٌ من باطون، وأعمدة مُشادة عليه تخرج منها قضبان الحديد، في انتظار أن يكتمل المبلغ الكافي لتشييد سطح عليها. . . وعلى السطح الجديد أعمدة جديدة تخرج منها قضبان الحديد. . .

ساید يحبّ الأبنية الحجرية فقط، أما أبنية الباطون الحديثة، فإن أحبّ بعضاً منها فذات الشّكل النّاجز.

يكره ساید مرأىٰ الأعمدة على السطوح، وقضبان الحديد تخرج منها صَدِئةً وفي كلّ اتجاه.

جميل يشعر بالقوّة كلما بلغ الحديث مع ساید هذا الموضوع الجمالي، فيروح يسترسل بالكلام وكأنّه يخطب:

- ثمّ تتهمني بالتقوقع والإنعزال! فقل لي إذن أنت الذي حارب ضد الاستعمار، وحارب ضدّ إسرائيل، قل لي كيف كان يمكن لأخي الأكبر أن يقيم في بيت مع أولاده السبعة لولا الباطون، ولولا أنّ والدنا لم يكن يملك ـ لحسن حظ أخي، وحظنا جميعاً ـ حِسَّ ما تسمّيه الشكل الناجز. فبنىٰ أبي أولاً على السطح عامودين استعمَلَتْهما والدتي لمدّ حبل الغسيل. ثم بنىٰ ثلاثة أعمدة أخرى، ثم بنىٰ الأعمدة المتبقية كلها، وقبل زواج أخي صبّ السطح، ثم اكتمل البيت رويداً رويداً؛ الحيطان والبلاط والمنجور. . . الخ. إسمع: عريشةٌ على أعمدة من باطون فوق سطح. . . إنه الجمال بعينه. إنه التفاؤل. إنه انتظار الأيام السعيدة بكل ما يتخللها من أحزان. إسمع: الباطون هو الديموقراطية. هو السياسة في عصرنا الحاضر! فهل تتصوّر دولةً أو حزباً أو تيّاراً سياسياً لا يتبنّىٰ مشروعاً سكنياً؟! وبماذا تُبنىٰ المساكن؟! فليس أجمل

من أن تنجب ولداً ترعاه بكلّ ما أوتيت... وتبني له بيتاً بالتدريج.. رويداً رويداً.. على قدر ما تستطيع، حتى إذا ما كبر حلّ سطحٌ محلّ العريشة، واحتمىٰ ابنك في ظله!

جميل في هذه الأيام رغم انشغال باله بما يجري في البلد يحبّ الكلام كثيراً على هذا الموضوع، لأنه يعمل على لوحة، يرسم فيها بيتاً ترتفع الأعمدة على سطحه، ومن الأعمدة تخرج قضبان الحديد... لكنّ سايد هذه الليلة مشغول باضطراب والدته وغضبها، فلم يستجب لمحاولات جميل الاسترسال في هذا الموضوع. ولما أحسّ جميل ـ أخيراً ـ بانشغال بال سايد سأله:

- ما القصة؟

فأخبره سايد بحال والدته.

- هذه حال المسيحيين عموماً ـ قال جميل ـ المؤيدين منهم لعون وغير المؤيدين له. وخصوصاً الموارنة. إنهم جميعاً قلقون.

- أنا لست منهم. قال سايد.

- لكنّك قلق.

- قلق بالتأكيد لكن على الوطن.

- وما الفرق بين الوطن وطوائفه. إنك كالعادة تتكلم عن الوطن كما هو موصوف في كتب التربية المدنية وليس عن الوطن لبنان. ألا يبقى الوطن إذا ما أزالت طائفةٌ طائفةً أخرىٰ؟

- ولكن لماذا هذا القلق والفئة التي تقاتل جيش عون ليست طائفة إنما الجيش السوري والسوريون لا يريدون إزالة طائفة ثمّ هم

على وفاق مع زعامة منطقتنا!

- ليس الأمر بهذه البساطة. إنّ هزيمة العماد والفئة المسيحية التي تؤيده ستؤدي إلى زعزعة الوجود المسيحي برمّته! أتسمع يا سايد؛ برمّته!

- وإذا ربح العماد فماذا سيحلّ بالطوائف الأخرى؟

- صحيح. إنه المأزق. فكل ما يحدث خطأ بخطأ. إنه الكارثة كيفما قلّبتَ الأمر.

لكنّ جميل يعتبر في الوقت ذاته، أنّ المسيحيين في لبنان ـ شئنا أم أبينا ـ محاصرون، وذلك إذا ما نظرنا إلى الأمر من الزاوية التاريخية.

- لو سلّمنا جدلاً بأنّ الأمر كذلك ـ قال سايد ـ أفهكذا كان عليهم التصرّف ليفكّوا الحصار عنهم؟

- لا. يجيب جميل، لا. أعرف أنّ هذا التصرف خاطىء. أعرف.

- ثمّ إذا تبنّينا هذا المنطق فالمسلمون في الواقع هم المحاصَرون. إنهم محاصرون على مستوى الكرة الأرضية.

- ليست المسيحية التي تحاصر المسلمين.

- الاستعمار.

- لا. الحداثة. قال جميل وردّد؛ الحداثة هي التي تحاصر المسلمين.

هنا وصل نافذ، وكان بادياً عليه أنه يغلي بالغضب، فقد أمضى نهاراً من المشاهدات المؤلمة، فعند الصباح أيقظته أمّه وطلبت منه أن

يوصلها بسيارته إلى كنيسة السيدة حتى تفي بنذر، فاستجاب لطلبها لأنها نادراً ما تطلب منه ذلك. وعلى طول الطريق من إهدن إلى الكنيسة كانت السيارات متوقفة على الجانبين، ملأىٰ بالناس النائمين جلوساً. كلّهم هاربون من بيروت، والكنيسة أيضاً كانت ملأىٰ بهم.

تمنّىٰ نافذ لو أن أمّه تعرف قيادة السيارات لتحلّ محلّه لشدّ ما كان متأثراً.

والآن، منذ لحظة، وبينما كان يوقف سيارته في الساحة وراء الميدان، وقع نظره على سيارة فيها رجل وزوجته وأولادهما الخمسة. الأولاد نائمون جلوساً، الرجل محنيّ ورأسه على المقود. الزوجة مكتّفة اليدين. ترجّل نافذ من سيارته وانحنىٰ ليتأكد مما رأته عيناه، فصحا السائق واضطرب، فطمأنه نافذ واعتذر. ثم أخبر السائق بصوت خافت، لئلا يصحو أولاده، أنه وعائلته لا زالوا واصلين من بيروت حيث بلغت الأمور حداً لا يطاق، وطال القصف كلّ الأمكنة، وقال إنهم استطاعوا بعد تردّد طويل الخروج من مخبأهم والهروب، حتى وصلوا إلى إهدن.

وقال السائق إنه فتّش فلم يجد مكاناً يبيت فيه. فبقي له هذا الخيار: السيارة.

- خمسة أولاد نائمون جلوساً على المقعد الخلفي. ردّد نافذ الذي لم ينسَ أن يسأل الرجل عمّا إذا كان تعشىٰ وعائلته فقال الرجل أنهم تعشوا.

- لو أستطيع استقبالهم!

- لا أحد منّا يستطيع استقبالهم، قال جميل ردّاً على تمنّي نافذ،

فكلنا نقيم عند أهلنا.

حين انحنىٰ نافذ على شبّاك السيارة فاجأه السائق بالتصريح عن أنه وعائلته من المنطقة الشرقية!

- ماذا أجبته؟ سأل بطرس.

- ماذا تريدني أن أجيبه؟ فهل كان تغيّر موقفي لو كان من منطقة أخرى؟!

بطرس لا يغيب أبداً عن الجلسات المسائية في «الدروب إنْ». إنه يكره أن يبقىٰ في البيت بعد العشاء، لذلك يخرج، والمسافة بين بيته والمقهى بضع مئات من الأمتار، فيمشي. ويحبّ معشر الشباب. فهم منفتحون ويناقشون ويعرفون أشياء كثيرة تثير إعجابه. وزوجته أيضاً تحبّ له هذا المعشر الراقي وإن كان يزعجها ما تسمعه عنهم من بعض الأوساط خصوصاً... لكن ما هي إلّا أوساط تحبّ الحكي بطبيعتها.

أبو سعادة، فاجأ حلقة الشباب هذه الليلة.

صحيح أن الحلقة هذه ليست حلقةً بالمعنى الضيّق، فما هم إلا شباب أصحاب يجتمعون على لعب الورق في مقهى كعدو، وعلى الدَّيْوَنَة في مقهى «الدروب إن». وجلستهم ليست اجتماعاً إنما لقاء على غير موعد، وقد ينضمّ إلى الحلقة أصحاب بعيدون، وقد ينضمّ إليها حشريون... لكن ذلك لا يحدث دائماً، فالعادة أن يلتقي الأصدقاء!

لكنْ هذه المرّة كانت المفاجأة كبيرة جداً!

أبو سعادة يقيم في الطابق العلوي من مسكن واقع على الجهة الشرقية للميدان، قرب مقهى جريج الصغير الشهير، مقهىٰ القهوة ـ الشَّفّة، وعلى مستوى مقهى «الدروب إن» تقريباً.

- مساء الخير يا شباب.

- أهلاً أبو سعادة تفضّل.

- لا. أنا لا أريد إزعاجكم... تابعوا حديثكم وكأني لست معكم!

أبو سعادة يسمع منذ فترة أن مغنّياً سيحيي حفلة... وأنّ ذلك

ربما سيكون على الميدان بالذات. فلم يشأ التدخل في الأمر مباشرة لكنه راح بهدوء، يستفسر عن المغنّي، فهمّه الأول كان معرفة ما إذا كان هذا المغنّي يجيد الألوان البلدية: عتابا وميجانا... إذ خاف أبو سعادة أن يكون من هؤلاء الذين يغنّون أغاني أجنبية أو تشبه الأجنبية.

كان أبو سعادة هذه الليلة أيضاً يشرب كأسه اليومي على بلكون بيته. وكان يرى الشباب بوضوح، وكان يسمع شذَرات من كلامهم حين تعلو نبرات أصواتهم.

لم يكن بلغ حدّ السُّكر بعد حين بدأ النقاش يحتدّ فانحنى ليستمع... الكلام الذي يبلغه، فيه عن الرقص والحفلة والمغني والميدان وحتى الفجر و... فترك كأسه ونزل يقصدهم غير قادر على أن يمنع نفسه من ذلك.

- أريد أن أقول، تابع نافذ حديثه، إني موافق تماماً على اقتراح سايد. لكن تبقى مسألتان يجب الاتفاق عليهما منذ الآن. المسألة الأولى كيفية دفع النفقات، والمسألة الثانية بتّ مسألة إقامة الحفلة على الميدان.

- على الميدان إذن، قال بو سعادة، ثم اعتذر لتدخّله ووعد من جديد بالتزام الصمت المطلق.

أبو سعادة الذي يشرب كأسه وحده كلّ مساء على هذا البلكون، ويستمع وحده إلى شريط عليه بعض الأغاني التي يحبّها... سيشرب كأسه هذه المرّة في وقتٍ قريبٍ جداً، وأمامه مباشرةً تحت بلكون بيته بالذات، المغنّي والمسرح والجوقة والجمهور.

- آخ ! هذا العزّ يا بو سعادة! قال بو سعادة، ثم اعتذر لتدخّله في النقاش ووعد من جديد بالتزام الصمت المطلق.

- أمْرُ المكان، أعتقد أنّه حُسِم، فلا أحد يعارض إقامة الحفلة على الميدان، أمّا النفقات فإننا سنجمعها من الذين سيحضرون الحفلة، وإذا لم نستطع سدّ كافة التكاليف بهذه الطريقة فنتوزّع نحن الباقي وندفعه من جيوبنا.

- هذا كلام جيّد، قال نجم.

لكنّ تدفيع الناس وقت الحفلة ربما أثار مشاكل عديدة. فهل يمكن إجبار سكان الميدان على الدفع؟ وهل يمكن إجبار عابر على الدفع؟ أو إجبار أحد يقصد الميدان للجلوس في مقهى أو لشراء حاجة أو لتعبئة ماء من الحنفيّة؟

الحل إذن يكون بالطلب إلى الناس، أن يشاركوا في النفقات، فيدفع من أراد، ومن يرفض فهو حرّ، لكن يحقّ لكل الناس الحضور. فهي حفلة مفتوحة لمن يودّ، ويكون البدء بذلك من الغد. ولا لزوم لطبع بطاقات، إنما نسجل فقط اسم من يدفع والمبلغ الذي يدفعه.

ولماذا لا يكون ذلك ابتداءً من اللحظة؟

- موافق.

- موافق.

- موافق.

إلاّ بطرس! فهو موافق ، لكن قناعته ليست تامّة بالنسبة لموضوع دعوة المغنّي. أفَمَا كادت قضية الطبل تؤدي إلى كارثة؟!

لكن المغنّي ليس كالطبل.

فالطبل هو الفرح الرهيب. كاسح الأحزان وخاطف الكينونة.

أما المغنّي فيمكن أن يغني حزيناً، ويمكن لأغنيته أن تُبكي، أمّا الطبل فلا.

يلين بطرس أمام كل هذه الحجج التي يعدّدها له جميل الاختصاصي بالموسيقى. لكنه يظل يحذّر من الخطأ.

ثم لخّص سايد تلخيصاً أخيراً ما تمّ الإتفاق عليه وما لا رجوع عنه وما سيقومون بتنفيذه ابتداءً من اللحظة:

- عيَّنّا نهائياً موعد الحفلة التي سيحييها سامي؛ يوم الأحد القادم عند الساعة التاسعة مساءً. نبدأ منذ الآن بجمع المال لسدّ نفقات الحفلة من كل مَن يودّ. وإذا تبقّى شيء من هذه النفقات ندفعه من جيوبنا. الحفلة مفتوحة لكل الناس. سنعمل جهدنا على منع إطلاق الرصاص. وسنبدأ غداً ببناء المسرح الذي سيستخدمه سامي وفرقته، وسيكون على رأس الميدان، في الجهة الشمالية.

تحت بيت أبو سعادة تماماً.

- موافقون؟

- أكيد ـ أجاب أبو سعادة.

وقبل أن يعتذر عن تدخّله انفجر الجميع بالضحك. إلاّ نجم. نجم لا يعرف من هو بوسعادة، لأنه ليس من البلدة. فهو مهجّر من قرى الشوف المارونية، إستقرّ بعد تِيْهٍ في إهدن.

لا يعرف إذن أنّ بو سعادة يشرب كأسه اليومي على بلكون بيته.

وأنه لا يستطيع أن ينام صاحياً، وأنّه على هذه العادة من زمان. . . يبقى يشرب حتى يثقل جفناه فلا يعود يستطيع رفعهما. . .

بعض الشباب يربطون بين إدمان بو سعادة على الشرب وبين اعتزاله العمل الحزبي. فبو سعادة كان حزبياً.

- كلّو زي بعضو!

يحلو لأبو سعادة أن يجيب هكذا حين يُسأل عن الحزب الذي كان منتمياً إليه!

أبو سعادة يأتي إلى الشباب ويرتاح لهم لأنهم واسعو الأفق ولأنهم ضدّ الطقم السياسي الذي يحكم البلد.

يقول بو سعادة أنه انتسب إلى الحزب ليواجه الإقطاع والجهل والمحسوبية والطائفية والقَبَليّة. . . الخ!. لكن الآن، إلى مَ عليه الإنتساب حتى يواجه الأحزاب جميعاً؟!

لذلك فهو يسأل دائماً حين يبدأ بالشرب:

- وين صرنا؟!

الرّبط بين الشرب وتجربة بو سعادة الحزبية كان يتبنّاه بطرس دائماً ولربما هو من أجرى هذا الربط أول مرّة.

لكنّ سايد ضد هذا الربط. فبو سعادة يشرب منذ ما قبل الحرب ومنذ ما قبل ما يسميه بطرس إنهيار الأحزاب اللبنانية العلمانية ومن بينها طبعاً الأحزاب اليسارية والقومية.

أما نافذ فكان يثيره الكلام على هذا الموضوع ويستفزّه.

نافذ كان حزبياً. لكن ليس في حزب بوسعادة ذاته. وهو يرى أنّه من العبث الكلام عن إنهيار الأحزاب حين انهار الوطن كلّه...

نجم وحده لا يزال حزبياً. وهو يردّد دائماً:

- لا يمكنني أن أكون متشائماً!

في اليوم التالي على إقرار موعد الحفلة الغنائية، قصدت زوجة بو سعادة سايد إلى بيته، وسألته، واستفسرت منه فأكد لها أنّ حفلةً ستقام على الميدان. فسألته عن طبيعة هذه الحفلة وعن ثمن بطاقة الحضور، فأطلعها على الأمر بالتفصيل.

ثم لما سألها بدوره عن سبب انشغال بالها إلى هذا الحد، أخبرته أن زوجها طلب منها أن تُرجِع له كل ما استودعها إيّاه منذ أسابيع ممّا هو مخصّص لمصاريف العائلة، ولمّا تمنّعت ألَحَّ عليها، ولمّا أصرَّت على رفضها كاد أن يضربها لكنها انصاعت وأعطته.

ثمّ طلبت أم سعادة من سايد الحذر من زوجها ليلة الحفلة لئلا يقوم بعمل ما فيؤذي أحداً أو يؤذي نفسه.

أول عمل قام به بو سعادة، صباح اليوم الذي تلا ليلة إقرار الحفلة، أن نزل إلى طرابلس، وأمضى وقته في البحث عن طقم كؤوسٍ لشرب العرق. وقد وقع على ما أراد. واشترى كذلك صحوناً جديدة للمازة!

بو سعادة يشرب كأسه وحده عادةً. لكنّه تحسّب هذه المرّة لضيوفٍ محتملين. فلعلّ!

بعد أن عاد بو سعادة من طرابلس تبرّع بمبلغ ألف ليرة مساهمةً منه في نفقات الحفلة. وقال لسايد:

- هذه أوّل دفعة. لا تخافوا.

لكنّه ظلّ مشغول البال يريد أن يعرف أكثر عن سامي المغنّي. فرَجَا الشباب أن يوافوه بشريط من أغانيه، ليسمع بعضها، ليطمئنّ قلبه. كان خائفاً بالفعل أن يكون من هؤلاء المغنّين الذين تَخَالُهم يغنّون بالأجنبية لو كنت لا تعرف العربية. فطمأنوه، فاطمأنّ... لكن ليس تماماً، إذ لو كان معروفاً بالقدر الذي يقوله الشباب فلماذا لم يسمع به هو، ولم يسمع له أغنية ولو مرّة على الإذاعة، ولم يشاهده على التلفزيون، ولم يسمع له شريطاً مسجّلاً في سيارة أو مكان؟

لكنّ الشباب ظلوا يؤكّدون له أنه ساحر في الغناء وأنه يجيد العتابا والميجانا وكلّ الألوان البلدية كما تجيدها صباح وكما يجيدها وديع الصافي.

- هل يغنّي بالأجنبية؟

فأكّدوا له أنه لا يغنّي بالأجنبية لكنه يغنّي أغاني حديثة متطوّرة.

على كلٍّ ـ قال بو سعادة ـ أنا معكم، لا تخافوا.

حين رأى بو سعادة الشباب يُنزِلـون من سيارة النقـل الصغيرة التي يملكها نافـذ، أحجار الخفّـان ليقيموا بهـا المسرح حيث سيقف المغني وفرقته، أسرع نحوهم.

كان ذلك تحت بلكون بيته تماماً!

فراح ينزل معهم الحجارة ويرصفها.

وظـلّ معهم، يعمل، طيلة المـدة التي استلزمتهـا عمليـة البنـاء، وطلب من زوجته أن تحضر لهم القهوة عدة مرات، حتّى مازَحـه جريـج في ذلك:

- ركوة جايـة وركوة رايحـة... إنك تقـطع رزقي!

وعند الظهر على مدى يومين كان يُنزِل لهم الغداء.

في اليـوم الأول كانت مفـاجأة بـالنسبة لـه. عـاد إلى البيت قبيـل الظهـر بقليل، كانت زوجتـه أعدّت الغـداء، فأنـزل الطنجـرة والصحون والمـلاعق والخبز والـزيتون، فـاصوليـا مـع رزّ، فـرفض الشبـاب أولاً، وأصـرّوا على رفضهم. ولكن ما نفـع هذا الـرفض والطعـام يُسكب في الصحون ويوزّع... ومن لا يستلم صحنه يوضع صحنه قربه!

حين رأت زوجتـه أن الشبـاب يمتنعـون صـرخت بهم من فـوق،

على البلكون:

- خير كثير. كلوا.

وعند انتهائهم من الأكل نزلت أم سعادة لتلملم الصحون... فانتهزتها فرصة لتلفت انتباه الشباب مرّة أخرى إلى ضرورة الإنتباه إلى بو سعادة ليلة الحفلة.

- لماذا تطلب إلينا ذلك بإلحاح؟ سأل سايد أمام جميل.

- قد يرمي بنفسه عن البلكون! أو قد يرمي بالطاولة!

- وكيف يكون الإنتباه إليه؟

فسكت جميل.

عند العصر، وكانوا لا يزالون يعملون، قدّمت لهم أم سعادة جاط تبّولة، فأكلوا كأنهم في عيد.

وتقدّم المساء وهم لا زالوا يعملون. كانوا يعالجون مشكلة الكهرباء والصوت. فاتصلوا بأسعد صاحب أوتيل زَخْيَا، وطلبوا منه المساعدة فوعدهم، في حال انقطاع الكهرباء، بإمدادهم من مولّده الخاص بل ألحّ عليهم بألّا يوفّروه في شيء يحتاجون اليه... إذ هم لا يعملون لأنفسهم بل يعملون للبلدة كلّها:

- أنتم خميرة طيّبة.

ثم أعْلَمَ الشبابُ أصحابَ المقاهي والمحلات على الميدان بكل

ما يتعلق بتنظيم الحفلة حتى يكونوا على ضوء فيما يفعلون. واتفقوا مع الـذين يريـدون الإقفال أن يُبقـوا على الكراسي والـطاولات في الخارج بحيث يستطيع من أراد استعمـالها أثنـاء الحفلة، وطلبوا من الجميع ألا يرفعوا أسعار الأكل والمشروب.

والآن، في هذه الساعـة المتقدمـة من الليل، بـات في استطاعـة الشباب أن يأووا إلى بيـوتهم. فغداً الجمعـة، ولم يبقَ عليهم إلا القليل ليصبح المسرح في جُهوزيّة كاملة. والحفلة الأحد.

ككلّ صباح كان صباح الجمعة هذه.

شمس تشرق من ناحية الشرق، عالية، تطلّ من خلف الجبل. لديها متّسع نهارٍ لتبلغ المقلب الآخر خلف البحر لتختفي فيه.

كانت الطريق إلى إهدن سالكةً في ذلك الشهر الأخير من الصيف. وكانت الصحف تصل من بيروت كعادتها منذ اندلاع موجة المعارك الأخيرة، حوالى الظهر إن وصلت، لأنه كان عليها أن تجتاز جبال الشّوف وسهل البقاع وقمة ظهر القضيب المشرفة على الأرز التي ترتفع أكثر من ألفين وخمسماية متر عن سطح البحر، ثمّ تبلغ بشرّي ثمّ إهدن.

يبلغ ارتفاع إهدن عن سطح البحر ١٤٥٠ م. والميدان هو نقطة القياس.

وكصباح كل يوم أفاق سايد من نومه . . . وسأل والدته عن ابنه ، فطمأنته بأنه يلعب مع رفاقه تحت شجرة الجوز، فطلب منها أن تناديه فجاء راكضاً وارتمىٰ بين ذراعي أبيه سائلاً إياه معاتباً :

- لماذا تسهر حتى آخر الليل فتضطرّ للنوم حتى هذه الساعة المتأخرة؟

وكان هذا السؤال مناسبة مرجوّة للوالدة حتى تسأل ابنها عن السبب الذي يدفعه إلى السهر أكثر من العادة هذه الأيام .

قبّل سايد ابنه طارق، وضمّه وهو يقبّله، بشدة، محاكياً كأنّه يكسر اضلاعه، فحاكىٰ طارق كأنّه يتألّم، ثم أفلت من بين يدي أبيه وانطلق عائداً إلى حيث كان يلعب .

سايد لم يُجب أمّه ولم يجب ولده .

ثمّ تروّق مما وضعت أمّه على الطاولة من حواضر البيت .

وأخبرته أمّه بينما كان يأكل عن الزُّرْقة كيف أنها تغزو كل المقدسات، وكيف أنها تشغل أكثر فأكثر بال الناس .

وظلّ النهار يتقدّم كعادته حتى انتصف، وتغدّىٰ الشباب الذين عادوا يتابعون ما بقي عليهم من الأمس، ممّا طبخته لهم أم سعادة . وكانت استعدّت هذه المرّة للأمر، فطبخت طنجرةً كبيرةً من اللبنيّة : لبن ماعز مع الرّز، كباكيب صغيرة من الكبّة الفارغة . وهذا يؤكل بالملعقة . وإلى جانبه ما يؤكل بالخبز: كبّة مُكَبْكَبة . كباكيب كبيرة من الكبّة، مشويّة في الفرن تسبح بزيت الزيتون .

- خير كتير . كلوا ! كانت أم سعادة تردّد، وترجو الشباب في

الوقت نفسه أن ينتبهوا لزوجها بو سعادة ليلة الحفلة الموعودة.

كانوا منصرفين إذن إلى إنجاز ما تبقّىٰ من المسرح، في وقت متقدّم من بعد يوم الجمعة هذا، حين سمعوا رصاصاً غزيراً، مصدره الحي الغربي في البلدة. لم يكن رصاص فرح ـ عرس أو ولادة. ولم يكن رصاص شارِبٍ أكْثَرَ من الشرب. بل كان رصاصاً عصبياً متوتراً غاضباً متحدياً. انهمر سريعاً وفجأةً. طلقات من مسدّس أولاً، تبعتها زخّاتٌ من رشّاشات عدّة مرّة واحدة، ودام الرصاص ينطلق غزيراً، ثم توقف فجأة.

فتوقف جميع الشباب عن العمل وراحوا يترقّبون وينتظرون أن يبلغهم فحوىٰ الأمر.

وبعد لحظات، بدأت المحلات تقفل أبوابها، ثم بعد دقائق اختفىٰ الناس، ولم يبقَ على الميدان أحدٌ أو سيارة.

والدة جميل نادته عن البلكون، فودَّ لو يُسكتها، لكنه شعر أن لا مفرّ من الإنصياع لرغبتها، أو تظلّ تنادي، ويظلّ صوتها وحده يغتصب حَذَرَ المكان وترقّبه. فترك أصحابه مرغماً وذهب إلى البيت.

حين رأى بو سعادة أن والدة جميل تناديه صعد إلى بيته من دون أن يستأذن أحداً، أو أن يقف عند خاطر أحد.

أمّا الذين كانوا يلعبون بالورق في مقهىٰ كعدو فاختفوا أيضاً، وبقيت الأوراق على الطاولات مع فناجين القهوة التي أهمل كعدو أن يستعيدها في الوقت المناسب.

عندما نادت والدة جميل على ابنها أطلّ كعدو من باب مقهاه

وسألها عمّا يجري، فأجابته بصوتٍ سمعه كل من كان مختبئاً في الميدان بأنها لا تعرف.

خَلا الميدان إذن من كل إنسٍ أو آلةٍ أو حيوان.

إلاّ شجر الدّلب!

تِسعُ شجرات من الدّلب مزروعة على جهته الغربية، كانت هذه المرّة الأولى التي يلاحظ فيها سايد هذه الشجرات دفعةً واحدة، ويحصيها.

تِسعُ شجرات كبيرة، تظلِّل المقاهي الخمس التي تحدّ الميدان من الجهة الغربية، بينها شجرتان كبيرتان جداً في مقهى «الدروب إنْ». تساءل سايد عمّا إذا كان أحد من إهدن يعرف عدد هذه الشجرات وقال في نفسه إنه سيسأل.

في هذه اللحظة الحرجة، مرّ رجل مسنّ يلبس سروالاً عربياً وعلى رأسه قلّوسة واقترب من حنفيّة الماء في وسط الميدان ليشرب. كانت مقطوعة.

- صارت الماء تنقطع في إهدن! قال.

وتابع طريقه.

جريج، كان يطلب من الشباب ألاّ يبقوا خارجاً، ويلحّ عليهم ليدخلوا القسم الداخلي من مقهاه ـ القسم الخارجي هو ما تيسّر من الميدان بالذات.

أما الشباب فبدأ الأمر يقلقهم كثيراً... إذ مرّت دقائق طويلة جداً على إطلاق النار ولم يبلغهم بعدُ خبرٌ بشيء.

وعويل نساءٍ بدأ يُسمع!

كان يبلغ الميدانَ عويلٌ كأنّه صوت موج يجيء ويروح.

- هيئتها القصّة صعبة!

قال جريج عبارته هذه وأنزل باب مقهاه الحديديّ السحّاب حتى منتصفه، بحيث بات على من يريد الدخول أو الخروج أن ينحني. وطلب من الشباب الدخول نهائياً والبقاء في الداخل، خصوصاً وأنّ بين الشباب من كلّ عائلات البلدة... هذه العائلات المتنازعة المتهادنة على الدوام.

لكن ماذا يمكن أن يكون حدث، فالخلافات بين العائلات الخمس هذه مكبوتة في الوقت الحاضر تحت ضغط أحداث الحرب المستعِرة على أرض الوطن كلّه. ومن زمان لم تشتعل الحرب بينها، فكلّ احتكاكٍ منذ خمسة عشر عاماً، يُعالج بسرعةٍ من دون أن يترك ذيولاً.

- حرب لبنان ما هي إلا تعميمٌ لحرب العائلات عندنا. قال نافذ هذا الكلام وهو عارفٌ في الوقت نفسه أنّ اللحظة ليست مناسبة لقوله.

ثمّ من المستبعد جداً أن يكون هذا الرصاص شرّاً حدث بين إهدن وبشرّي المتناحرتين منذ ما يزيد عن قرن. فالرصاص كان في الجهة الغربية لإهدن، وبشرّي ناحية أقصىٰ الشرق لجهة الجنوب.

وعبرت الميدان امرأةٌ تولول وتصرخ وتقول:

- محسن!

عبرت مسرعةً في اتجاه الجنوب.

جـريج عـرف من هي المرأة واستـطاع أن يعرف بـالتالي من هـو محسن. إنه صهر المرأة المولولة.

محسن هذا عاد مع زوجته وأولاده الثـلاثة من أميـركا منـذ حوالى ثمانية أشهر فقط، بعد هجرةٍ دامت سبعاً وثلاثين سنة، وهو يتردّد دائمـاً إلى مقهاه، ولا شكّ أن الشباب جميعهم يعرفونه، بالنظر على الأقل.

ومـرّةً، سـأل جـريـج محسـن عن سبب عـودتـه إلى لبنـان، خصوصاً في هذه الظروف حيث النـاس يهاجـرون بـالآلاف، فـأجابـه محسن أنه، منذ حـوالى سنة، ذهب لـزيارة عمّتـه التي تقيم في منطقـة تبعـد عن كراكـاس ـ حيث كان يقيم ـ حـوالى ست ساعـات بالسيـارة، فاستقبلته عمّته والدموع الغزيـرة في عينيها. ولمّـا سألهـا عن سبب هذا البكاء، أجابته بأنها تعيش وحدها منذ عدة سنوات، فقـد توزّع أولادهـا الخمسـة كلٌّ في مكـان، بحيث أنّها لم تعـد تراهم إلا في المنـاسبـات المتبـاعدة، وتـزداد هذه المنـاسبات تبـاعـداً بـاضـطراد، ولا تـراهم إلّا فُرادىٰ، فمنذ ما تفرّقـوا لم ترهم مـرّة مجتمعين، وقد مـات والدهم من زمـان... وبدأ الـدمـع يغـرق عينَيْ محسن وهـو يـروي هـذه القصـة. وكانت عمّته تقول له:

- زوروني! لا تتركوني وحدي!

وترجـوه.

وهي لا زالت حتى اليـوم، وقد بلغ عمـرهـا مـا فـوق الثمـانين، تسلق القمـح وتشمّسه على السـطح، وتطحنـه برغـلاً ناعمـاً تعمل منـه أكلها.

- زوروني! لا تتـركـوني وحـدي!... كـان يـردّد محسن وهـو

يروي . . . ويمسح الدمع بمحرمة عن عينيه.

ومن لحظتها قرّر العودة نهائياً إلى لبنان. ولم يصدّق لشدّة ما كان منفعلاً بعد أن أنهى زيارته لعمّته، أنه سيتمكّن من الوصول إلى بيته في كراكاس، ليُعلم زوجته بالقرار الذي اتخذه! ولمّا رأته زوجته خافت لِما كان من اسوِداد وجهه وتجهّمه:

- ما بِكَ؟! قالت.

- سنعود فوراً إلى لبنان، فلن أموت هنا.

وأخبر زوجته بما جرى وبأحزان عمّته.

ولم تمض عدة أشهر حتى كان باع محلّه والبيت، وصفّىٰ ما كان يربطه بتلك البلاد وركب الطائرة مع عائلته وعاد.

- الموت، أحلى بين الأهل منه في الغربة.

وهو يبني الآن بيتاً جميلاً في الناحية الغربية، قريباً من بيوت إخوته وأولاد عمه!

وحين بلغت المرأة المولولة مستوى مقهى كعدو، اقترب كعدو منها وسألها عن محسن:

- يا حرام عليك يا محسن!

وصارت تردّد هذه العبارة بصوتٍ هو الصّراخ صراحةً، ثم ردّدت عبارة أخرى لم تكن أكثر فائدةً من حيث معناها بالنسبة للمنتظرين على أحرّ من الجمر حتى يعرفوا ما إذا كان محسن قد قُتل أم لا.

- أَيْش ذنبك يا محسن!؟ أَيْش ذنب الشباب!؟

وكان صوتها يزداد ارتفاعاً كلما أصرّ كعدو على أن يعرف منها

أشياء أكثر تحديداً، لكنّ كعدو انكفأ أخيراً وعاد إلى مقهاه، إلى القسم المبنيّ منه وليس إلى الفسحة الخارجية التي يظلّلها شجر الدلب.

- قُتل إذن محسن!

هـذا ما استنتجـه الشباب المختبئـون عند جـريـج. وهم من كـل عائلات البلدة. فأيّ قريب لمحسن يستطيع الآن أن يصـطاد أحداً منهم من عائلة القاتل.

فاضطربوا.

وتردّدوا فيما يفعلون، واختلفوا.

أيذهب كل واحد منهم إلى حيّه فوراً، أم ينتظرون قليلاً ليتأكـدوا من الأمر ومن هويّة القاتل خاصّةً!؟

- راحت الحفلة! قال نافذ.

فاعترض عليه بطرس بأنهم الآن عليهم الخلاص برؤوسهم فقط.

أمّا جبّور، فاصفرّ لـونه، ولم تعـد رجلاه تحتمـلانه فـألقىٰ بنفسه على كرسي، واقترب منه جريج بكبّاية ماء وناوله إياها، فرفضها شاكراً، وأشعل سيجارة ـ جيتان ـ وطلب منه أن يعطيه فنجان قهوة.

صحيح أنّ جبّور قد يكون مبالغاً في خـوفه، لكنّـه ينفخ في اللبن لأنّ الحليب كـواه! فقد قُتـل أخوه عـام ١٩٥٨، حين انقسم اللبنانيـون إلى مؤيـدين لمشروع الـرئيس الأميـركي أيـزنهـاور، وكـان على رأسهم كميل شمعون رئيس الجمهـورية المـاروني، ومعارضين لهـذا المشروع وغالبيّتهم مسلمون. وكانت هذه الفئـة الأخيرة مـدعومـة من الجمهوريـة العربية المتحدة التي كانت تضمّ سوريا ومصر بزعامة الرئيس جمال عبد

الناصر.

يومها، كان قسم من الإهدنيين بزعامة حميد فرنجية في عداد الأخصام الألدّاء لكميل شمعون الذي كانت تؤيده، بالمقابل، الغالبية المسيحية.

جبّور، قُتل أخوه عن عمرٍ لا يزيد على السبعة عشر عاماً. كان عائداً إلى البيت جاهلاً أنّ قتيلاً سقط من عائلةٍ أخرى، وأنّ القاتل من عائلته، فاصطادوه. فاضطرّ أهله يومذاك إلى ترك بيتهم الذي ورثوه عن جدّهم، وانتقلوا إلى الحي الذي بدأت تتجمّع فيه العائلة وأنصارها. في تلك السنة، تمّ انقسام إهدن إلى أحياء، كلّ عائلة مع أنصارها تتحصّن في حي وتعيش فيه حياتها اليومية.

وحده نجم يستطيع أن يقوم الآن بعمل مفيد جداً قد يمكّن الشباب الخروج من هذا المأزق.

نجم، وحده، من بين مجموعة الشباب، ليس من البلدة. فهو مهجّر من قرية في جبال الشوف ترك ضيعته عام ١٩٨٣، بعدما انتشرت عناصر القوات اللبنانية في تلك المنطقة، إثر الإجتياح الإسرائيلي لها ولقسم من لبنان، وراحوا يحاولون إخضاع الدروز في قراهم، حتى استطاع الدروز إجلاءهم طاردين في الوقت ذاته جميع المسيحيين من المنطقة، بعدما قتلوا منهم من قتلوا. ولم يخلص نجم يومها كونه شيوعياً، والشيوعيون كانوا حلفاء الدروز. نجم نجا بعدما قُتل كثيرٌ من أهله. واستقرّ أخيراً بعد أن تنقّل في أماكن كثيرة، في إهدن.

وعندما هَمَّ نجم بالخروج، ظهر على الميدان أحد أولاد عم القتيل، حاملاً كلاشنكوف، مزنّراً بالأمشاط. لكنه لم يكن إلا عابراً،

في اتجاه حيّه. . . فلم يطلق النار. وكان عبوره كالسهم خاطفاً وحادّاً.

فتراجع نجم.

ومن جديد، حطّ نظر سايد، بعد عبور قريب القتيل، على شجرات الدّلب التسع. أكبراها في مقهى «الدروب إنْ». فودّ لو يعرف متى زُرعت هاتان الشجرتان خصوصاً. وقال في نفسه مرةً أخرى إنه سيسأل.

ساید متضایق کثیراً، لکنه لیس خائفاً.

- إذهب يا نجم عند بيت جميل وعُدْ سريعاً وأخبرنا.

فذهب حيث أُرسل وعاد ومعه جميل.

- أماتَ أم قُتل؟ ماذا حدث يا جميل؟

- وما الفرق؟

حتى أنّ التراب يَقتل!

أَنْ يموت الإنسان بعد عمر طويل فهذا أمر طبيعي. وما عدا ذلك فشيء خطير! فكيف إذن والأمر أنّ آدميين يقتلهم أليفُهم التراب؟!

خندق عرضه ثمانون سنتمتراً. طوله ستة أمتار. عمقه في الأصل ثلاثة أمتار. الحافرة ـ من نوع بوكلن ـ متوقفة قريباً منه.

وبَشَرٌ كثير وصمت عميق متوتّر. وما من أحد إلا ويدري ما الذي جرىٰ، وكيف، وبالتفصيل، لكنّ أحداً لا يبدو عليه أنه يريد التصديق.

أفيمكن هذا؟!

ما أن أنجزت الحافرة حفر الخندق، وأنزلت دواليبها إلى الأرض ومضت، حتى رمى المعلم بطرس قسطلاً في الخندق، ثم قسطلاً ثانياً، ثمّ أنزل السّلّم فيه ونزل هو عليه.

المعلم بطرس لم يبلغ بعد الخامسة والعشرين، عازب، لكنّ زفافه سيتمّ يوم الأحد المقبل وبشكل قاطع هذه المرّة بعدما أجّل المرة الأولىٰ لعدة أشهر أملاً في أن تنتهي معارك بيروت. ففي الأصل أراد بطرس أن يقيم عرساً كبيراً، لكنّه، وبيروت لا تنتهي معاركها، قرّر أن يكون عرساً متواضعاً جداً، ومن دون ضجّة أو احتفالات أو ولائم. الأهل والأصحاب القريبون فقط.

للحياء أحكام.

وبسبب اقتراب موعد عرسه، كان بطرس يريد أن ينهي هذه الورشة التي يشتغلها بما استطاع من سرعة. لذلك كان يبقى يعمل حتى عتمة الليل، وأحياناً في الليل علىٰ ضوء الغاز أو الكهرباء إذا لم تكن مقطوعة.

حين بلغ بطرس قعر الخندق، نادىٰ على معاونه أن يرمي له الزئبق ثم أن يُنزل له العدّة.

وبينما كان المعاون يرمي الزئبق، إلى المعلم، هرّت نتفة تراب من تحت قدمي محسن الواقف على حرف الخندق من الجهة المقابلة لجهة المعاون. فطلب منه بطرس أن يبتعد قليلاً لئلا يقع. فابتعد محسن خطوة إلى الوراء.

في هذا الوقت، كان شربل إبن محسن البكر، يقترب من والده

ليسأله عن النربيش لأنّ وقت سقاية الباطون حان.

استدار محسن ليدلّ ابنه على مكان النربيش، وتراجع وهو يستدير، عدة خطوات عن الخندق، ومعه ابنه إلى جانبه تماماً... وفجأةً، سمع ضجةً صامتةً وخاطفة، لم تدم أكثر من لحظة، فالتفت إلى الوراء، إلى مصدرها، التفت عفويّاً، فرأى تراباً من حرف الخندق حيث كان واقفاً وقد توقف عن الانهيار، فاقترب، فرأى بطرس مطموراً حتى أواسط فخذيه.

كان بطرس بدأ يصرخ، بصوتٍ مختنق بالغبار، ومتقطّع بالسّعال.

ويطلب أن يُنجَد!

- خلصوني!

ومع صوته تخرج أحشاؤه.

وفي الوقت ذاته كان يحاول بعصبية، وبحركات لا تكتمل أبداً، أن يسحب رجليه الأسيرتين، فيبعد عنهما التراب لحظة ثم يسند يديه على الأرض ويشدّ رجليه، ثم يشدّ بكل يدٍ على حائط ويشدّ جسده إلى فوق ثم لا يتوقف عن المبادرات وعن الترداد بصوت مذبوح بالخوف والغبار والسّعال:

- خلصوني!

شربل سبق والده إلى السلّم، فبقي الوالد فوق.

وما أن بلغ الإبن الأسفل حتى اقترب من المعلم بطرس ومدّ له يده، والتقت اليدان. وشدّ شربل.

كان المعاون بعدما تحقّق ممّا جرى ركض نحو أقرب بيت على

بعد نحو عشرين متراً ونادى بكل صوته طالباً النجدة.

أنطوان كان لا يزال عائداً من الشغل، يخلع ثيابه، فركض بقميصه القطن حافي القدمين، وقبل أن يبلغ الخندق بثوانٍ رأى التراب ينهمر من حرفه، لكنّه لم يرَ أحداً فيه.

وعلا الغبار...

فالتوى محسن على نفسه كأنه أصيب، وولول وصاح وصرخ وحارَ وكاد أن يرمي بنفسه في هذا الغبار الجهنمي لولا أن بلغه أنطوان في اللحظة الأخيرة ومنعه عن ذلك.

- اتركني يا انطوان! ابني وبطرس!

- ما بهما؟ قال انطوان.

ولمّا كان انطوان لا يستطيع استيضاح الأمر من محسن، تدخّل المعاون وأوضح له أنّ التراب طمر المعلم بطرس.وشربل، فأطلّ انطوان على الخندق فلم تقع عيناه إلا على غبار سميك لا يزال يتصاعد ولا يسمح برؤية شيء كثير، فراح يدور على نفسه عاجزاً عن تقدير ما يجب عمله.

في هذه الأثناء كان الناس يتراكضون من كل الجهات، ويتكاثرون.

وبعد أن انجلى الغبار قليلاً بحيث سمح لأنطوان أن يميّز ما في الخندق، قفز إلى أسفله، لكنه لم يرَ شيئاً أبداً!

- ما في حدا! صرخ انطوان من تحت.

- بلىٰ. قال الوالد.

- أين؟

- تحت التراب.

فنادى أنطوان أن يُؤتَىٰ له برفش ومعول، وراح وهو ينتظر، يزيح التراب بيديه. وحين وصله المعول أولاً، رفعه وهمّ بالضرب مستجمعاً كل قوة في كينونته، ثمّ وهو يهوي به، عَدَل عن ذلك، وتطلّع في الناس فوق وصرخ بهم:

- أين؟

- إضرب يا انطوان!

لكن أين يضرب انطوان، والخندق طويل، وأين يضرب وهو خائف من أن تقع ضربته على رأس أحدهما!

وضرب انطوان مرة أخرى وبسرعة ثم رمى المعول لما بلغه الرّفش وصار يرفش.

- كأنّها يَدٌ!

فرمىٰ الرفش وراح يحفر بيديه ليقع على قطعة قماش عتيقة كانت لا شك على حرف الخندق قبل أن يسقط. ثم عاد وتناول الرفش ليزيل التراب عن المكان الذي كان يشير إليه محسن.

وتكاثر الناس، وتكاثرت الرفوش والمعاول والضاربون بها... وتكاثر السؤال!

السؤال الواحد الوحيد الأوحد!

- كم ثانية مضت؟

- الآن الآن!

هذا كان جواب محسن على الدوام.

- الآن الآن!

والحافرة؟

كانت الحافرة ابتعدت كثيراً، كثيراً جداً، بضع مئات من الأمتار على الأقل. وقبل أن تعود، بعد دقائق هائلة قضتها في الإستدارة، وفي اجتياز المسافة إلى الخندق، وفي الوقوف في المكان المناسب، كان الناس استطاعوا كشف التراب عن شربل، بعد أن حفروا حوالى نصف متر وأخرجوه. لم يكن ثقيل الوزن. كان متواضع الجثة لا يبغ وزنه الستين كيلوغراماً.

كان منحنياً شبه مقرفص، وجهه نحو الأرض، ويده قريبة من بطرس مشدودة على تراب يمنع أصابعها من أن تبلغ بعضها لتتحولّ إلى قبضة.

- طبيب!

علا الصراخ من كل صوب:

- طبيب!

واختلف الناس في أمر استعمال رفش الحافرة للمساعدة في الكشف عن بطرس. وانقسموا إلى مؤيدين وحجّتهم أنها أسرع، ورافضين وحجّتهمم أنها قد تقطع جسده في حين أنّ أحداً لا يستطيع التسليم بأنه مات... ولم تمض على الحادث بعد أكثر من ثوانٍ. فتُوبع العمل بالرفش والمعول والأيدي، إلى أن بانت يده.

كان يستر بها رأسه.

وكأنّها تحرّكت حين رُفع عنها التراب.

- تحرّكت يده! صاح انطوان.

- طبيب! تردّد الصراخ فوق سطح الأرض.

وعادت الأسئلة لتشتعل على كل الألسنة:

كم ثانية مضت؟

كم يستطيع الإنسان أن يبقى حيّاً وهو مطمورٌ بالتراب؟

جميع الذين كانوا في الخندق رفضوا أن يُربط بطرس بحبل إلى رفش الحافرة لترفعه فوق سطح الأرض، وأيّدهم في ذلك بقوّة قسم من الذين كانوا فوق، أما الآخرون فلم يعترضوا، والقليل الذي اعترض فبحجّة أنّ الطبيب قد يصل بين لحظةٍ وأخرى.

انطوان هو الذي حمله على ظهره وتقدّم به خطوتين أو ثلاثاً حتى يبلغ السلّم.

كان يمسك به بيديه الإثنتين حتى لا يقع عن ظهره. لكنه لما بلغ السلّم كان عليه أن يحرّر يداً واحدةً على الأقل ليستعين بها على الصعود... فكاد أن يقع بطرس عن ظهره لولا أن الذين كانوا وراءه تلقوا الجسد بصدورهم وأيديهم ومنعوه من السقوط في اللحظة المناسبة. فأنزله انطوان عن ظهره، واستدار ليستقبله بصدره، ورفعه بكل عزمه إلى كتفه، ليتدلّىٰ رأسه إلى الخلف.

وفوق،

فوق سطح الأرض كانوا يصيحون بأنه حي، ويسرعون الطبيب يرسلون في إثره الواحد بعد الآخر.

حين دعس انطوان برجله على الدرجة الأولى من السلّم، وشدّ بكل عزمه لينهض بنفسه وبحِمْله إلى الدرجة الثانية، انكسرت الدرجة الأولى. . . فلم يستطع أن يتفادى ارتطام وجهه بالدرجة التي كانت على مستواه، وانجرحت جبهته.

انطوان لم يطلب أي مساعدة.

لكنه لم يمنع الناس الذين كانوا معه في الخندق من أن يساعدوه على الإرتقاء من الأرض مباشرة إلى الدرجة الثانية، فكادوا أن يحملوه مع حِمله. ولما استقرّت رجله على الدرجة الثانية، ولمّا رفع رِجلاً إلى الدرجة الثالثة وهمَّ بكل عزمه. . . انكسرت الدرجة الثانية، وسقط انطوان وحِمله على مساعديه خلفه ثم على الأرض.

وفي هذه الأثناء، انهمر بعض التراب من الحائط السليم، فعلت ضجة فوق سطح الأرض، وتباعد الناس وولولت النساء.

- إنكم تؤلمونه! صاح أحد الحاضرين.

- سُلَّمْ! هاتوا سُلّماً! جاء الصوت من أنحاء مختلفة من المكان.

هنا، أنزلت الحافرة رفشها وفيه حبل، وفاجأت جميع الموجودين في الخندق، وخصوصاً انطوان الذي صاح بأعلى صوته آمراً أن يرفعوا رفش الحافرة. لكن الصوت من فوق جاءه يفيد بأن الطبيب واصل بين لحظة وأخرى، فنادىٰ من أعماق أحشائه أن يؤتىٰ له بسلّم.

فجيء له بسلّم، فتناوله بيده وركّزه جيداً، ثم انحنى على بطرس وحمله كما تُحمل الجرحىٰ في الحروب، وطلب من مساعديه أن يدعموا الدرجة التي يدعس عليها بأيديهم. ونهض.

نهض انـطوان بحِمْله وبلحظةٍ كـان فـوق. فـوق سـطح الأرض. فولولت على الفور النساء وعلا صراخهنّ.

وتردّدت النداءات عالياً بوجوب إحضار الطبيب.

واختلطت الأصوات: الصراخ والعويل والنحيب والطبيب الطبيب أين الطبيب، وكم ثانية مضت، وقد بلغت الثواني الدقيقة، وكم يستطيع تحت الأرض أن... وزخّة رصاصٍ من مسدس!

تناول أحد الحاضرين مسدّسه من خصره وراح يطلق النـار صوب السماء.

صوب السماء!

لم يكـد هـذا الـرجـل يفـرغ المشط حتى انهمـر الـرصـاص من رشاشات عديدة، أغلبها كلاشينكوف.

عندها صاح انطوان بابنه، وهو فتىً في السادسة عشرة من عمره، أن يأتي ببندقية الـ إم ١٦. فأتاه بها، وكان الرصاص لحظتها ينطلق من كل سلاح مع الحاضرين، فأفرغ مشطاً وأراد أن يفرغ الثاني، لكنّ ابنـه لم يأت بالأمشاط الأخرى... فهوىٰ عليه بكفّه.

هوىٰ انطوان على ابنه بكفّه يصفعه، ثم يضربـه بقبضة يـده حيث استطاع منه، وكاد يوقعه على الأرض لولا أن استدرك الفتىٰ نفسَه وابتعد مستعيداً توازنه... فكيف إذن يأتيه بالبنـدقية من دون ذخيـرتها؟! فهـل اعتقد أنه يجيئه بها لصورة تذكارية؟!

ودامت النار تُطلق صـوبَ السماء، وفي اتجـاهها، إلى أن وصـل الطبيب.

- الآن!

قالوا له.

- الآن!

وقبل وصول الطبيب بلحظات، كان الجيران أحضروا فرشتين مُدِّد عليهما الجسدان اللذان كانا شديدي السواد. لكنّ قبضتي بطرس كانتا مغلقتين.

كان الطبيب مشدود الوجه، متوتر العينين لا يستقر نظره على شيء، يتنقّل بآلته من جسد إلى آخر، يتفحّص النبض، ينفخ في فيهَيْهما، ثم توقف فجأة، ومدّ يده إلى جيبه بحركة عصبية، وأخرج علبة دخان، فاقترب منه الناس، وظلوا يقتربون حتى التصقوا به.

- إعمل شيئاً!

والطبيب صامت، وقد سحب سيجارة من علبته وأشعلها.

ولما اشتدّ التصاق الناس به، واشتدّت عليه أسئلتهم، وألحّوا عليه في القيام بعمل ما ينقذ حياة الشابين، إقترب أحد أقربائه من المتحلّقين حوله وراح يطلق الرصاص في الفضاء، وظلّ ينسلّ وهو يطلق الرصاص، حتى بلغه ووقف قربه والتصق به... وظلّ وهو قربه يطلق النار. فانحلّ الحصار رويداً رويداً، واقترب من الطبيب بعضٌ آخرُ من أقربائه وأحاطوا به. وجميعهم كانوا مسلّحين، ومنهم من أطلق النار.

ولما أدرك الطبيب أن الأمور قد تتطوّر نحو الأسوأ، قال بصوتٍ عالٍ، موجّهاً كلامه إلى جميع الحاضرين دون تخصيص أحد يعنيه:

- إنقلوهما إلى المستشفى.

فدبَّتْ حركة عصبية بين الناس، وبعد لحظات لا تتعدى الدقيقة حضرت سيارتان، وضع في كل واحدة منهما جسد من الجسدين، وانطلقتا بسرعة، بعد أن صعد الطبيب في واحدة منهما كانت الأقرب إليه، ومعه واحد من أقربائه مصطحباً بندقيته.

أما أقرباء الطبيب الآخرون فتبعوه في سيارة أخرى، مصطحبين بالطبع سلاحهم.

قال الطبيب «أنقلوهما إلى المستشفى»! ولكن أي مستشفى؟! وهو يعرف أنّ أقرب مستشفى تبعد ثلاثين كيلومتراً عن إهدن. إنما البلدة تحوي مستوصفاً. والمستوصف هذا لا يبعد أكثر من دقيقة أو دقيقتين على الأكثر، بالسيارة، من مكان الحادث.

ساعة مضت قبل أن يأتي الخبر من هناك، من المستوصف، أنهما ماتا.

أفيمكن ذلك؟ أن يقتل الترابُ رجلين؟

وفور وصول الخبر وقف أحد أقرباء شربل قرب الخندق وقد أدار له ظهره، وأنشد من أعماق أحشائه:

لا تشمتوا يا عِدا والموت ما خَلاّ حَدا

قبل أن تصل الجثة إلى بيت أهل بطرس، كان الأقارب والجيران أعدّوا كل ما يلزم لاستقبالها: التخت في وسط الصالون الذي أُفرغ من كل محتوياته التي يمكن حملها. على التخت شرشف نظيف أبيض ناصع كالثلج ومكوي. والكراسي الخيزران محيطة بالتخت من كل جوانبه.

حين دخلت والدة بطرس إلى الصالون، ورأت هذا التخت في وسطه، أصابتها الجمدة، فوقفت تتأمّل صامتة غائبة العينين قد انربط لسانها. ثم، بعد برهة، قالت بهدوء كلّي:

- أين المخدّة؟

وأضافت ،

- لا ينام بطرس بدون مخدّة!

وفجأةً

وانفجرت

- ولداه!

وراحت تلطم وجهها، وتضرب صدرها، وتصرخ بصوت قوي رغم اختناقه:

- ولداه!

وكادت تمزّق صدرها حيث تحجب الثياب صدرها لولا أن تدخلت النسوة ورحن ينصحنها بالتروّي ويذكّرنها بأنّ عليها توفير قواها.

- العيد لا يزال في أوله يا أم بطرس، فالجثة لم تصل بعد!

- جثّة مَن؟ قالت الوالدة.

ثم قفزت إلى التخت وتمدّدت عليه وهي تقول للنسوة اللواتي يلاحقنها أن يدعنها تنام، لأنها تعبانة، تريد أن ترتاح، ولأنّها نعسانة، تريد أن تغفو. ثم هي في بيتها! وإذا ما عاد بطرس وأراد أن ينام، فلينم في مكان آخر، في غرفة النوم، فالصالون ليس للنوم!

فنصحتها النسوة بالتحلّي بالصبر، فما هي إلا مشيئة الله التي لا تُردّ. ونصحنها بالانصياع لإرادته:

- حُلّي شعرك يا ماريّا... حلّيه!

وحين اقتربت منها امرأة لتحلّ لها شعرها انتفضت ومنعتها.

- هذا كفر! صرخت بها إحدى النسوة المسنّات. هذا لا يجوز. فمن من البشر لن يموت!

- لا! قالت الوالدة! لا! بطرس لن يموت.

- أسكتي! أنت أم أولاد! أنت امرأة لا تترك الكنيسة، هذه مشيئة الله، صَلّي، اطلبي العون من السيّدة العذراء، واطلبي منها أن تشمله بعطفها في السماء.

في هذه الأثناء، وصلت السيارة التي كانت تحمل جثة بطرس إلى قدّام الباب فتراكض نحوها الحاضرون.

كان بطرس ممدّداً على المقعد الخلفي، واثنان من الرجال يجلسان على حرف المقعد يسندانه. ماريّا، سمعت الضجة وأدركت أنّ الجثة وصلت، فخرجت مسرعة تتبعها النسوة. وأبو بطرس استطاع أن يبلغ ولده بينما كان على أيدي الرجال يخرجونه لينقلوه إلى البيت، لكنّه رُدَّ قبل أن يستطيع أخذه بيديه الإثنتين وبصدره وبكل جسده.

وبينما كان الرجال يجتازون بالجثة المسافة التي كانت تفصل السيارة عن البيت، علا صراخ النساء وعويلهنّ، وراحت أم بطرس ترقص ببنطلون ولدها حول رقبتها تمسك به بإحدى يديها من عند خصره، وباليد الثانية من عند الرجلين، تشدّ باليمنىٰ وترخي باليسرىٰ، وتشدّ باليسرىٰ وترخي باليمنىٰ وترقص.

ترقص، ترفع رجليها الإثنتين عن الأرض ميلليمترات أو تكاد، لتهبط بعدها وهي تدير وجهها وجذعها نحو اليمين مرّةً ونحو اليسار أخرى.

وانطلق الرصاص من كل مكان. وما من أحد من مطلقي الرصاص إلا استطاع إفراغ مشطٍ أو أكثر قبل أن تختفي الجثة داخل البيت. واستطاع عمّه، رغم هذا الضجيج الناري أن ينشد:

لا تشمتوا يا عِدا والموت ما خَلاّ حدا

الذين أدخلوا الجثة إلى البيت لم يمدّدوها على التخت، بل سلّموها إلى سمعان وسركيس ويوسف الذين طلبوا فوراً من الجميع ـ رجالاً ونساءً وصبيةً ـ أن يخرجوا. فخرج الجميع، ومن بينهم الوالدة. وبعد لحظات خرج سركيس واقترب من العمّة وسألها بصوت منخفض عن الثوب الذي يودّ الأهل إلباسه لابنهم، فأجابته بصوت

عالٍ، كأنّ سائلها يبعد عنها عشرات الأمتار:

- بدلة العرس.

وتابعت تقول له على سبيل اللوم، ودائماً بصوت عالٍ، إنه عريس، وإنّ عرسه يوم الأحد، ولوّ! ولوّ يا سركيس! وكان سركيس عاد واختفى في البيت والعمّة لا تزال تجيب.

بعد أن غسل الرجال الثلاثة الجثة، وألبسوها بدلة العرس الجديدة، خرجوا على الناس بوجوه متجهّمة، وتوجّهوا إلى النساء بكلمة واحدة مقتضبة:

تفضّلن!

وأسرعت الوالدة، والنّسوة يحطن بها، ودخلن.

هنا، تركت النسوة الوالدة والقريبات يَنْدَبِبْنَ على الجثّة من دون أن يتدخّلن.

حملته أمّه!

أدخلت أمّه يديها تحت ظهره، ورفعته إليها، وشدّته إلى صدرها، وألصقت وجهها بوجهه. وطلبت له مخدّة لأنه لا يستطيع أن يغفو بدون مخدّة. إلى أن تدخّلت النسوة واستطعن ردّها عنه وأقعدنها على كرسيّها قرب رأسه.

وبعد فترة استقرّ خلالها أمر النساء حول الجثة، وصل الوالد، يحيط به أولاده الآخرون والأقرباء وأصدقاء بطرس، وأندبوا جميعاً عليه، وبكوه وقبّلوه، وكلّموه وسألوه، ولاموه، وكيف، وهو النّبيه الحذر، وهو المعلّم.

كانت النساء في هذه الأثناء تمنع الواحدةُ الأخرى عن ردّ الرجال

عن الجثة، فتصرخ الواحدة في وجه الأخرى:

- اتركيهم!

فتجيبها الأخرى:

- اتركيهم!

ذلك في الوقت الذي لا تريد فيه أية واحدة منهنّ منع الرجال عن الجثة.

ثم تقول الواحدة للأخرى:

- البكاء جميلٌ على الميّت.

فتجيبها الأخرى:

لم يمت أحد من البكاء على الميّت.

وقوفاً تتجابه النساء، والرجال منصرفون إلى البكاء، حتى ينشف الدمع! فاقتربت منهم بعض النسوة ورددنهم عن الجثة!

الوالد كان آخر من ارتدّ، كان ينتظر جواباً على سؤاله الأخير إلى بطرس، عمّا يجب قوله لابنه الآخر المغترب في أميركا، وكيف سيخبره!

ثم خرجوا جميعاً وعادوا إلى حيث يقيم الرجال في بيت الجيران المقابل.

الإستقبال الذي جرى لبطرس، جرى مثله لشربل.

لكنّ جثّة شربل وضعت في بيت عمه، حيث كان يقيم مع أهله منذ عودتهم من كراكاس في انتظار أن ينتهي بناء بيتهم.

أعمام شربل الذين حضروا إلى المستوصف قبل نقل الجثتين إلى البيت، إقترحوا على أهل بطرس أن توضع الجثّتان في مكان واحد، وأن يكون ذلك المكان عندهم حيث جرت الحادثة. لكنّ والد بطرس فضّل أن تنقل جثة ابنه إلى بيته.

ولولا بعض ألسنة السوء كانت الأمور جرت كما يجب أن تجري، خصوصاً في مثل هذه الحالات حيث يتعالىٰ الناس عن الصغائر والأمور التافهة، لكنّ أحد أقرباء شربل قال علناً في محفل الرجال أنّ والد بطرس يتهمهم بالتّسبب في وفاة ولده. واستعمل كلمات فجّة للتعبير عن ذلك. قال:

- يقول أننا قتلناه!

وجرى لغط في الموضوع، وجرى أخذٌ وردّ، حتى سُمع أحد المتحمّسين من أقرباء شربل يقول بنبرة لا تخلو من التحدّي:

- لكنّ ابننا مات وهو يحاول أن يخلّص ابنهم! فنحن أحقّ

بقول الكلام الذي يقولونه! فمن واجبات المعلّم أن يعرف أنّ نـزلته إلى الخندق كانت مخاطرة!

وجـرىٰ كلام في تحـديد المسؤوليـة. أفهل الحق على المعلّم أم على صـاحب العمل أم على المهنـدس، أم على صاحب الحـافرة، أم على الذين كانوا يتفرّجون؟!

- ولـوّ! ألم يمـرّ أحـد بهم لـه خبـرة بـالمـوضـوع، وينبّههم إلى الخطورة الكامنة في هذا العمل؟

جـرجس قال إنـه مرّ من هنـاك وكـانت الحـافـرة لا تـزال تستعـد لتنصرف، وقال لبطرس:

- إيّاك أن تنزل إلى الخندق قبل أن تدعّم الحيطان.

فأجابه بطرس:

- يدبّرها الله.. لا يموت أحد إلا في يومه.

وقال جرجس أنه ألحّ عليه في تحذيـره من النزول، ثم انصـرف، وبعد دقائق، وكان محسن لا يزال يدفع أجر الحافرة، عاد، وألقى نظرة وهو عائد إلى أسفل الخندق، فرأى فيه بطرس، فناداه وقال له:

- هذا عين الخطأ!

فتـذمّر منـه بطرس صـراحةً، ووصفـه بـأنـه نـذيـر شؤم، فسكت جرجس وانصرف وقد خجل.

هناك أصول يجب اعتمادها عند حفر خنـدق بهذا العمق. وهنـاك مسؤولية أيضاً. وفي بلدان العالم تتدخلّ الدولة ويحدّد المسؤول.

العقلاء تدخّلوا سـريعاً وحسمـوا الموضـوع وقضوا بـأنّ الأمر قـد

صار. وأنّه حكم القدر

ـ كنّا هناك في محفلهم ـ قال أحد وسطاء الخير ـ ورأينا والد بطرس يبكي شربل كما يبكي ولده.

ثم تدخّل بعضهم لدى والد شربل، وتكلّموا معه على انفراد، وطلبوا منه أن يقطع الشرّ من أصله قبل أن ينمو، فرحّب بمبادرتهم وأثنى على عملهم، ثم طلب الإنفراد بإخوته وأقربائه في غرفةٍ على حدة، حيث طلب منهم الكفّ قطعيّاً عن الكلام على هذا الموضوع، واعتباره حراماً محرّماً وقال:

- بطرس ميِّتُنا كما هو شربل تماماً!

وانتهىٰ الأمر عند هذا الحد.

وللتأكيد على حسن النوايا، قام والد شربل، يصحبه الأقرباء، إلى حيث وُضع بطرس في بيت أهله، وبكوا عليه، وتركت هذه المبادرة أثراً طيباً، وأثارت كلاماً كثيراً عن ضرورة نبذ الخلافات الآن من البلدة، خصوصاً في هذه المرحلة الصعبة والمصيرية.

والد بطرس ردّ الزيارة. وبكىٰ طويلاً على جثّة شربل. وقال له وهو منحنٍ عليه:

- ما كان عليك أن تلحق به!

أصرّت والدة بطرس على أن تحلق ذقن ولدها: عريس في عرسه غير حليق الذقن! هذا لا يصير! وطلبت وألحّت بأن يؤتىٰ لها بحلّاقِه بولس.

فحضر بولس، وكان مشدود عضلات الوجه، عابقاً، يتبعه ابنٌ له في الثالثة عشرة من عمره، فأفسحت لهما النساء طريقاً ليعبرا.

بولس تلفّت حين بلغ التخت فلم يجد ابنه حدّه، فتطلّع إلى الوراء فرآه متردّداً فأومأ إليه برأسه أن يقترب، فاقترب.

طلب بولس منشفةً وهو يفتح علبة العدة ليخرج منها الهاون والفرشاة وعلبة صغيرة فيها مسحوق الصابون، فجيء له بمنشفة ففرشها على صدر بطرس بالعرض، وأدخل حرفها بين ياقة القميص والعنق، حول العنق نزولاً من الجهتين حتى شرشف الفراش الأبيض.

وبعد أن وضع مسحوق الصابون في الهاون طلب ماءً، فجيء له بالماء فسكبه في الهاون على الصابون وحرّكه بالفرشاة... فعاتبته هنا الوالدة لأنّ الماء بارد... فلماذا لا يستعمل بولس الماء ساخناً، وبطرس يحبّه ولا يحلق شعره إلا عنده.

لم يكن بـولس يلتفت إلى أحـد أو إلى شيء. كـانت حـركتـه مختصـرةً وأكيدة. وقبـل أن يضع الفـرشـاة على ذقن بـطرس ليمـرحهـا بالصابون طلب من ابنـه أن يخرج من علبة العدّة الموسىٰ والطّسمة التي يسنّ عليها الموسىٰ.

وما أن لامست الفرشـاة ذقن بطرس العـريس حتى انطلقت ملكـة بالإنشاد:

حـلّاق يا حـلّاق إحلقْ ناعـمْ وخلّي السّوالف فوق خدّ الناعمْ
لا تفيّقوا المحبوب خلّوه نايمْ خلّـوه نايـم للضّـحىٰ يتخمَّـرْ

وقـامت الـوالـدة، وقـامت العمّـة، وقـامت القـريبـات، وقـامت البعيـدات، ودبّ الـرقص في المكـان، وتصـاعـدت من الأحشـاء آلام السنين.

الـوالـدة كـانت تـرقص قـرب رأس ولـدهـا ـ بـولس في الجهـة المقـابلة ـ وبنطلونـه حول رقبتهـا، تشدّ بيـدٍ إلى الأمام لتـرجع الأخـرى ضاربةً بها صدرها.

وتعلو بكل قامتها وتهبط.

- ارقصي يا ماريّا ارقصي، فلن يكون لك هذا العيد كل يوم!

ولما أجرىٰ بولس الموسىٰ على ذقن بطرس صرخت به الوالدة أن يتأنّىٰ لئلا يجرح ذقن ابنها.

كان بولس يمسـح الموسىٰ على وعـاء من مطّاط يمسـك به ابنه وكـان يحذر والمـوسىٰ على ذقن بطرس من أن تـدفعه امـرأةٌ فيجـرح لا إراديـاً ذقنه.

كـان عليـه أن ينحني كثيـراً حتى يستـطيـع، بمـوسـاه، أن يبلغ التجاعيد في العنق تحت الذقن.

ثم، بعـد أن انتهى، مسحَ الـذقن بـالمنشفـة جيـداً، وسكب في تجويفة يده عطراً من قنّينة ومرح به يديـه الإثنتين ثم مرح بهمـا الذقن. كلّ يد على خد. ثم مرّر يداً واحدة على العنق، ثم مرّر الثانية.

- نعيماً!

قال وهو يستدير لينصرف والدمع يغرق عينيه

هنا،

ماذا تستطيع والدةٌ أن تفعل هنا!؟

فجلست الـوالدة، وأرخت يـديها، وراحت، تتـأمّل بصمتٍ وجـه ابنها الناعم الحليق، وبهدوء.

لم يكن ينقص ولدها إلا حذاؤه! فلماذا لا يلبس حـذاءه... وقد لبس كـلّ ثيـابـه ولم يبق عليـه إلا الحـذاء! فلمـاذا لا يكمـل!؟ لمـاذا يتكاسل!؟

- ماما!

قالتها بهدوء صريح، كأنّها لم تحرّك شفتيها.

وانطلقت ملكة من جديد:

مَـرْمَـرْ زمـانـي يـا زمـاني مَـرْمَـرْ
مَـرْمـرتِـنـي لا بـدّ مـا تِتْمَـرْمَـرْ

وأصـرّت الوالـدة على أن يؤتىٰ لها بـالمحبس، محبس الـزواج، فهي تريد أن تضعه في يده الآن. وتناولت يده، وراحت تتأمّلها وتطالب

في الوقت ذاته بالمحبس، وفي يده خاتم وعليه أرزة وعلى الأرزة رأس يوسف بك كرم. لكنّ المحبس لم يكن في مكان، وقُلِب البيت رأساً على عقب بحثاً عنه، وكان المحبس مع العروس، والعروس في بيت أهلها، قد استُعيرت لها ثياب سوداء إرتدتها وقبعت تبكي تحيط بها صديقاتها والنسوة من أهلها والأقرباء والجيران.

بعد أن انصرف بولس وابنه بفترة قصيرة، حضر والد بطرس مع صحب من الأقرباء وأصدقاء بطرس، فأفسحت لهم النسوة مجالاً ليستطيعوا بلوغ الجثة.

- نعيماً يا بطرس!

قال الوالد قبل أن يندب عليه ويبكيه بكاءً مرّاً فظيعاً. وقبّله وشمّه وضمّه ولمسه وتلمّسه...

وراحت النساء تمنع الواحدة الأخرىٰ عن ردّ الوالد وصحبه عن الجثة، الواحدة تقول للأخرىٰ:

- اتركيهم!

فتجيبها الأخرى:

- اتركيهم!

كان الوالد وهو عائد من بكاء ابنه إلى محفل الرّجال حانِيَ الجسم كأنّه مصاب في بطنه.

سايد وأصدقاؤه كانوا يتنقّلون بين المحفَلَيْن؛ مرّةً هنا ومرّةً هناك. وكان حزنهم حزنين: فقدوا اثنين من معارفهم ومؤيّدي نشاطهم، فبطرس وعد بحضور حفلة الأحد بعد العرس. ودفع ألف ليرة مساهمةً في المصاريف. وقال إنه سيظلّ يرقص وعروسه على الميدان حتى الفجر. وشربل دفع ألفي ليرة، وتحمّس لفكرة الحفلة، رغم أنه حديث العهد بالبلدة لا يعرف كثيراً من الناس، ولا يجيد النطق جيداً بالعربية فقد ولد في كراكاس وعاش هناك إلّا فترات صيفٍ قصيرة كان يقضيها في البلدة مرّةً كل سنوات.

والحزن الثاني سببه الحفلة. إذ أدركوا جميعاً أنّ أمرها انتهى وأنّها لن تحصل، رغم أنّ شيئاً جوّانيّاً كان يدفع سايد إلى القول في سرّه أنّ الحفلة الآن، وخاصةً بعد الذي حصل، يجب أن تُقام. يجب ألّا تُلغىٰ. ولكن

كيف يمكن أن يكون ذلك والبلدة غارقة في حزن عميق؟

- هذا غضب!

هكذا كان يردّد الناس في المحفلَيْن، وفي المجالس، وحيث يلتقون.

- هذا نذيرٌ بالشؤم الأعظم.

وعلامات استفهام خطيرة يرسمها الناس حول المعاني من هذا الذي يجري، فها هي ظلال رموزهم تزرقّ، وها هو ترابهم الأليف يقتلهم:

- يقتلنا التراب إن لم يقتلنا الرصاص!

- عمري ثمانون عاماً ولم أسمع أنّ تراباً قتل آدمياً!

فهذه الأرض التي يروونها بعرقهم ودمهم، ويطعمونها أجسادهم، ها هي الآن تقتلهم!

هذه الأرض الأليفة التي صارت منهم وصاروا منها،

وقد أيقنوا منذ آلاف السنين أنّها لهم ومعهم.

ها هي الآن تنقلب عليهم.

- ومتى ازرقّ ظلّ!؟

- إلاّ ظلالنا تزرقّ!

لا يجهل سايد أنّ ردّة فعل أهالي البلدة على هذه الحادثة، ما هي إلا ردّة فعل المتهيِّب من الموت الأعظم. فأصداء المدافع تتردّد ليلَ نهارَ في أذهانهم ، وهم يقرأون الجرائد والمجلات ويسمعون الأخبار على الإذاعات المحلية والأجنبية، ويتفرّجون على التلفزيون حين تكون الكهرباء متوفّرة، ويتهامسون بالمعلومات المتوفرة لديهم عن بواطن الأمور.

أسرّ سايد بما يفكّر به إلى نافذ وجميل، وأسرّ لهما أيضاً برغبته المكبوتة في أن يرىٰ الميدان يوم الأحد المقبل يشتعل بالغناء ويتفجّر بالفرح.

- خَلِّ الناس تخرج من حالها!

فهذا الحزن الذي يلتهم أهالي البلدة، وهذه الحادثة بالـذات، لا تزيده إلا رغبةً مضاعفةً في إجراء الحفلة في موعدهـا الذي أمضـوا وقتاً طويلاً في تحديده وفي الإستعداد له.

- يا ريت! قال نافذ

- غداً نحكي! قال جميل.

فجميل يرىٰ أن لا بدّ من الانتظار حتىٰ مـا بعد ظهـر غدٍ السبت، أي بعد الجنازة. فعلىٰ ضوء ما يجدّ يتّخذون قرارهم.

في الواقع، سايد يريد أن يقيم الحفلة في موعدها. ولو كان الأمر بيده وحده دون الأصدقاء لأقامها مساء الأحد المقبل بدون تردّد.

- أنت رجلٌ انتحاري! رماه جميل.

خصوصاً، وأنّه يعرف أعماق سايد، ويعرف رأيه بعلاقة الإهدنيين بالحزن، فهم كجميع الموارنة، والمسيحيين، وكجميع العرب الآخرين من كـلّ الطوائف والبلدان، لا يجيـدون إلا الأحـزان. فغنـاؤهم حـزين وشعـرهم حزين وطقـوسهم حزينـة. أمّـا كُتّـابهم فغِرْبـان. وفي أحلىٰ حالاتهم بَكّاؤون رومنسيّون. فما من واحد منهم إلا ويحلم بمأساة فردية أو عامّة حتى يستمدّ منها مِداداً لقلمه.

- نجِّنـا يـا ربّ من عـاقبـة هــذا الضحـك! يقــول النـاس حين يضحكون.

فكم تمنّىٰ سـايد لـو استـطاع أن يؤسّس حـزبـاً ضـدّ الأحـاسيس والمشاعر والعواطف وما شابهها، فرديّةً كانت هذه الأحاسيس أم عامّـةً، ولكم تمنّىٰ أن يكون حزبه هذا حزب العقل الصّارم، المضادّ، بالإضافة

HEQUE COURON

للأحاسيس، للهَبَل، وخصوصاً الهَبَل!

- إسمعْ يا جميل ما يقوله لسان العرب في الهَبَل:

« (. . .) وفي حديث أمّ حارِثةَ بن سُراقةَ: وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ؟ (. . .) وقد استعاره ههنا لِفَقْد المَيْز والعقل ممّا أصابها من الثُّكْل بولَدها كأنّه قال: أَفَقَدْتِ عقلَك بِفَقْدِ ابنك حتىٰ جعلتِ الجِنان جنّةً واحدة؟».

قرأ سايد لجميل هذا المقطع الذي دوّنه على ورقةٍ ظلّ محتفظاً بها حتى تفتّت في جيبه.

- الهَبَل يا جميل هو فقدان العقل بسبب الحزن! فتعالوا نفرح!

- ولكنّ الفرح أحاسيس! اعترض جميل.

- معليش! قال سايد! الفرح اليوم حليف العقل! ألا ترىٰ كيف يحتلّ الهَبلُ الأمكنةَ كلّها. إنّه في صدارة الصفوف وعلى المنابر، وفي الساحات هنا في إهدن وفي كلّ هذا الوطن المنقطع والممتدّ. أنظر كيف سيلجأ الإهدنيون الليلة إلى بيوتهم من أوّل المساء، وكيف سيقبعون فيها يتسارّون همومهم في عتمة انقطاع الكهرباء، وفي عتمة أحزانهم الدفينة والبادية.

- لا زلت تجيد التكتكة ـ قال جميل ـ لم تنسَ السياسة بعد!

- كيف ذلك؟ قال سايد.

- تجعل العقل يتحالف مع الفرح لينتصر على الحزن، أولاً، ثمّ لينتصر على الفرح بالذات.

- يجب أن ينفجر الناس من الفرح وإلّا سأنفجر أنا من الغضب.

- رُوْق! قال جميل.

جميل ينصح بالصبر، وبانتظار الغد، رغم أنه في أعماقه يعرف أن لا جدوىٰ من الإنتظار وأنّ الحفلة ملغاةٌ حكماً.

وبعدما تقدّم المساء، وبعدما أمضىٰ سايد ورفاقه الوقت في التنقّل بين المحفَلَيْن، قرّروا العودة إلى بيوتهم على أن يلتقوا على الميدان في ساعة متأخرة.

عنـد الفجـر، حين بـدأت أجـراس الكنـائس كلّهـا تقـرع قـرعـاً متواصلاً، كانت أم سايد تجهّز نفسها للخروج لسماع القدّاس.

أم سايد لم تنم كثيراً هذه الليلة، أمضت المساء وقسماً من الليل ساهرةً تتنقّل بين المحفلين، ككلّ نساء البلدة.

نسـاء البلدة اللواتي سهـرن حـول الجثّتين صلّيْن، وتحـدّثْن في الأمور الخطيرة الجارية في لبنان وفي إهـدن، وتحدّثْن أيضـاً في الأمور الأكثر خطورةً التي ستجري.

شغل بالَها أم سايد هذا القرع المتواصل لأجراس كنـائس البلدة، فأسرعت تفتح الباب وتطلّ منه لتجـد الناس يخـرجون مثلهـا من بيوتهم وأغلبهم في ثيـاب النوم، والقلق مـرتسم على وجوههم. والأسئلة على الأفواه:

- ماذا؟!

- أيّة كارثة؟!

وبعد دقائق عمَّ الخبرُ الناسَ جميعاً.

- إزرَقَّ الجبل!

ومن لم يستطع رؤية الجبل من قدّام بابه صعد إلى سطح بيته.

جبل سيّدة الحصن أزرق!

وجبل السيّدة هـذا يحمي إهدن من جهـة الشمال، وعنـد طَرَف مَتْنِه الغربي تقوم كنيسة صغيرة قديمة يقول الإهـدنيّون عنهـا آنّ جيوشـاً غازيةً هدمتها مرّاتٍ عديدة ثمّ كانت تعود فتَنْبَنِي وحدها، بقدرة قادر!

ويرتفع هذا الجبل عن سطح البحر عند الكنيسة ١٦٠٠ م.

كنيسة السيّدة مطلّة على جميع أنحـاء الدنيـا، يقول الإهـدنيّون. ويـروون أنّ هرقـلاً حين استعاد الصليب أمـر بـإشعـال النّـار على جبـل السيّدة هذا حتى يعلم بالخبر أكبر عدد ممكن من أهل الأرض.

ولا زالت أجـراس الكنائس تقـرع لا تهـدأ، حتى امتـلأت الكتلة بالوافدين إليها من كلّ حدب وصوب.

وقبـل أن تلحق أم سايـد بالنـاس إلى الكتلة أيقظت ابنهـا سـايـد لتخبـره أنّها ذاهبـة إلى القدّاس ومن بعـده إلى المحفلَيْن. وأخبرتـه بأنّ جبل السيدة ازرقّ، فأجابها ممتعضاً ومن دون أن يفتح عينيه:

- وماذا تريدين أن أفعل؟!

ثمّ غَفا من جديد.

غصّت الكتلة ولا زال النـاس يتـوافـدون إليهـا، حتى امتـلأت السّطوح والشرفات المحيطة بها.

ومن لم يقصـد الكتلة لسببٍ قاهـر وقف يـراقب النـاس من قـدّام الباب أو من شُرفةٍ أو عن سطح.

إلاّ أهل الفقيدين، بالطبع.

وهؤلاء كانت تبلغهم الأخبار تباعاً. فالناس لم ينقطعوا عنهم أبداً، بل كانوا يتناوبون ليؤمّنوا حضوراً دائماً في المحفلين.

يوسف أوّل من رأى الشيء.

فبعد زيارتة اليومية لقبر أخيه، في التّربة العامة، وبعد أن ألقىٰ نظرةً على القبور المكلّف من قبل أصحابها الإهتمام بها، وبعد أن ألقىٰ نظرةً على القبور الأخرى على سبيل الحَسَنَة، قصد الكنيسة، كعادته، ليفتح بابها، وليجهّزها للقدّاس.

يوسف، إنصرف نهائياً لخدمة الكنيسة بعدما أُصيب أخوه في بداية الحرب عام ١٩٧٥، ونَذَر أن يقوم إلى خدمة الكنيسة طيلة حياته إن شُفي. ورغم أنّ أخاه توفي بعد أيام من إصابته تلك، قرّر يوسف أن يفي بالنّذر.

يوسف لم يكن يريد سماع القدّاس هذا اليوم. إنما كان يريد الذهاب للخدمة في المحفلين فور وصول الكاهن إلى الكنيسة والتأكّد من أنه لا ينقصه شيء.

كان الفجر بَدَأ يعلن صراحةً عن نفسه عندما أنهىٰ جولته، وقصد الكنيسة، فأضاء شموعها والمصابيح الكهربائية، وجهّز المبخرة، وتأكّد

من توفّر البرشان والنبيذ، ثم خرج ليلقي نظرةً على رؤوس الجبال ليرى ما إذا كان الضوء صار يسمح بقرع جرس الكنيسة إيذاناً باقتراب موعد القدّاس فوقع نظره على بحرٍ من الزّرقة يغطّي الجبل كلّه! فكاد يفقد توازنه، فأسند ظهره إلى باب الكنيسة وصلّىٰ ثم دخل من جديد، وركع خاشعاً، وطلب المعونة من العذراء مريم، ثمّ حاول أن يصرف انتباهه إلى أمور أخرىٰ، حتى تمرّ هذه التجربة بسلام، فالشياطين تَرودُ دائماً محيط الكنائس حتى تُوقِع بالمؤمنين.

وقبل أن يطلّ برأسه من الباب، المرّة الأخيرة، غمس يديه الإثنتين في جرن الماء المقدّس ومسح به وجهه: لا زال الجبل مزرقّاً! وقد ازدادت الدنيا وضوحاً... وصارت أشعة الشمس على متن جبل السيدة تشير بوضوح إلى وقت دقّ الجرس للمرّة الثالثة إيذاناً ببدء القدّاس!... فأسرع يوسف إلى الجرس يمتشق حَبْله ويوقظ الكون!

- أنا سعيد جداً، لأنّكم لَمَا كنتم صدّقتموني لو لم تروا بأعينكم.

هذا ما كان يحلو له أن يردّد، للناس المتوافدين.

- والنّواطير!؟ أين النّواطير؟!

والنواطير كانوا من أوائل الحاضرين، وعددهم خمسة على عدد العائلات التي تتنازع الزعامة في البلدة.

- ماذا تريد أن تفعل النواطير؟!

- أنْ تناموا مع غياب الشمس ـ أجاب يوسف ـ وأنْ تتركوا الليل يجيء وحده ويمضي وحده. ألا تعلمون أنّ كلّ شيء معرّض للسرقة

هذه الأيام. حتى موتانا. ألا تسمعون بما يجري؟!

والناس في هذه الأثناء لا تزال تتوافد إلى الكتلة، والجرس لا يزال يقرع، يتناوب عليه من استطاع بلوغ الحَبْل.

- أوقفوا قرع الجرس! قال الكاهن فور وصوله، وقد بدأ الناس يتحلّقون حوله.

فتراكض عدد من الصِّبْية إلى داخل الكنيسة وأبلغوا المتحلِّقين حول حبل الجرس رغبة الكاهن، فتوقفوا... مما سمح بسماع صدىٰ أجراس الكنائس تقرع في القرى المجاورة المطلّة على المنحدر الجنوبي لجبل السيدة.

يرىٰ أهالي القرى هذه إذن، الأزرقَ يغمر الجبل.

أثار توقّف الجرس عن القرع لغَطاً. فالذين اعترضوا ظنّوا أنّ الكاهن أمر بذلك لأنّ الجرس لا يجوز أن يُقرع حين تكون البلدة في حِداد، لكنّ الحقيقة اتضحت فيما بعد لهؤلاء المعترضين، فالكاهن أمر بذلك حتى يتسنّىٰ له إقامة القدّاس.

- هل ذهب أحدٌ إلى الجبل ليستطلع الأمر؟

هذا السؤال الذي طرحه أحد الناس، كان له وقع الإنفجار على الكاهن وعلى المتحلِّقين حوله.

- لِنُقِمِ القدّاس الآن ـ قال الكاهن.

- في البلدة جنازتان. قال أحد الحاضرين.

- لِنَنْسَ كلّ شيء الآن ولْنُقِم القدّاس.

كان يوسف، حين دخل الكاهن إلى الكنيسة ليبدأ القدّاس، جهّز

كلّ شيء، فبدأ القدّاس، وجرت مراحله سريعاً، واختصر الكاهن منه ما استطاع. لكنّه ألقىٰ عظةً مقتضبةً، فيها النقاط على الحروف، قال:

نحن الإهدنيين لا نخاف. هذه الأرض لنا. إنها تحتضن رفات آبائنا وأجدادنا منذ آلاف السنين. إنّ أرواحهم تسبح على الدهر في فضائها. أقول لكم: إنّ أرواحهم معنا. صلّوا لا تخافوا!

هنا، دوّىٰ الرصاص، وانطلق غزيراً من المسدّسات والرشّاشات التي كان يحملها كثير من الحاضرين الموجودين خارج الكنيسة والذين كان يبلغهم كلام الكاهن بواسطة مكبّرات الصوت.

ولمّا لم يعد الكاهن قادراً على أن يعلو بصوته على أصوات الرصاص الغزير، أنهىٰ خطبته بالدعوة ثلاث مرّات إلى عدم الخوف... فانطلقت النساء داخل الكنيسة وخارجها بالزغاريد، وتناولت امرأةٌ مسدساً من رجل قربها وظلّت تطلق النار حتىٰ أفرغت المشط. كانت هذه المرأة في حدود الخمسين من عمرها. وكانت حُبلىٰ كبيرة البطن كأنّها تحمل توأمين.

أم سايد بكت وهي تعيش هذه اللحظات الهائلة.

وكانت السماء في هذا الصباح صافيةً كما تصفو سماء الجبال ذات صباحٍ من أيلول. لكنّ غيوماً كانت تربض على سطح البحر لم يلاحظها إلاّ قليلون ممّن لا تطمئنّ قلوبهم بسهولة.

كانت هذه الغيوم تربض بهدوء...

وحين عادت أم سايد إلى البيت، أخبرت ابنها أنّ رصاصةً أصابت حائط الكنيسة وارتدّت إلى حيث كانت تتجمهر الناس، ولم تصب أحداً، وكانت الناس لكثرة أعدادها لو رميتَ تراباً لما بلغت الأرضَ حبّةٌ منه.

إستقرّ الرأي أخيراً بعد القدّاس، على تأليف فِرَقٍ خمسٍ للإستطلاع. كلّ فرقة عن عائلةٍ وأنصارها. ثم اجتمعت أربع عائلاتٍ في فرقتين، كلّ عائلتين لم يَسِلْ بينهما دمٌ من زمان، في فرقةٍ واحدة. وهكذا انخفض عدد الفرق إلى ثلاث.

وانتشر الخبر في البلدة، وخرج الناس إلى الطرقات التي سلكتها الفرق في طريقها إلى الجبل. وزغردت النساء لهم، وألقت عليهم الرّز. وبعضهنّ استقبلنهم بصور القدّيسين. وصورة العذراء خصوصاً.

كان الرجال الطالعون في المهمّة يقبّلون ثوب العذراء عند أطرافه التي تلامس الأرض.

كانوا جميعاً مسلّحين ببنادق رشّاشة، وقنابل يدوية، ومعهم أجهزة توكي واكي. كل فرقة جهاز. وكانوا، وهم لا يزالون في البلدة، يتكلّمون مع المركز ليتأكدوا من حسن سير أجهزتهم.

المركز على الكتلة.

أمّا المهمّة فكانت واضحة جداً: الإستطلاع والعودة قبل الجنازتين.

الفرقة الأولىٰ، وهي مؤلّفة من خمسة أشخاص كالفرقتين الأُخريَيْن، أُرسلت لتستطلع الجبل فوق النّبع عند طرف غابة الصنوبر. وكانت مهمّتها صعبة جداً لأنّ الجبل هناك شديد الإنحدار. وكاد اثنان من عناصرها يستفرغان لأنهما غير معتادين على هذا المشي الجاد.

وقعت هذه الفرقة بعد قرابة ساعة من السير، على راعٍ، يحاول أن يخرج من بحر الزُّرقة الذي وجد نفسه فيه مع قطيعه، فجأةً، في عتمة ما قبل الفجر.

اتصلت الفرقة رأساً بالمركز، وأعلمته بوجود راعٍ مع قطيعه، فطلب منها المركز على الفور أن تحصل على كل المعلومات التي يملكها، فردّت الفرقة أنه يرفض الإجابة على أسئلتها وأنه يكتفي فقط بجواب وحيد هو: لا أعرف شيئاً! وأضافت أنّ الراعي من أهالي البلدة، فسألها المركز عن اسمه ثم قال إنه سيرسل أحداً من أقربائه للمساعدة على حلّ هذه المشكلة.

مرشد، ابن عم الراعي، كان على الكتلة، وكان يروي للمتحلّقين حوله حكايةً لا بدّ أنهم سمعوها عشرات المرّات، وفي كلّ مرّة يكون وقعها في نفوسهم عميقاً.

كان مرشد يروي ما حدث ليوسف بك كرم أثناء معركة بنشعي، عام ١٨٦٥ حين كان على رأس الإهدنيين ضد الجيش العثماني ـ كما يقول الإهدنيون. كان رجال البيك يشاهدون وراءه على الحصان سيّدةً ترتدي فوق ثيابها مشلحاً أزرق، وترفع عينيها دائماً نحو السماء التي بلون وشاحها، وتحيط البيك بيديها الإثنتين، من دون أن تمسّه. وكان رجاله يصرخون به أنّ امرأةً خلفه على الحصان، فيتطلّع وراءه يميناً ويساراً فلا يجد أحداً.

لم يقطع مرشد حكايته رغم إلحاح المنادين عليه من المركز، لكنّه أسرع في إخبارها.

كُلِّف مرشد، اللحاق بالفرقة الأولى التي وقعت على ابن عمّه الراعي وقطيعه. وانتُدِب لمرافقته مسلّح. وأَعلمَ المركزُ الفرقةَ بذلك.

وبينما كان مرشد ورفيقه في منتصف الطريق تقريباً، عاد المركز واتصل بالفرقة:

- أصبحنا نراكم الآن بوضوح. حصلنا على منظار.

ثم سأل:

- هل يرعىٰ الماعزُ العشب؟

- لا. أجابت الفرقة.

- هل يبدو عليه عارِضٌ ما؟

- لا!

- إقطعوا أعشاباً، وبعض غصون الصنوبر واجمعوا بعض الحجارة وانتظروا.

حين وصل مرشد ورفيقه، كانت الفرقة جالسةً على صخرة، تأكل من زاد الراعي الذي قدّمه لها. وكان ابن عمّه واقفاً متأمّلاً مندهشاً بهذا المنظر الغريب وهو يردّد:

- أهو الجنّ أم الإنس من قام بذلك؟!

سلكت الفرقة الثانية الدّرب المؤدية إلى السّن، آخر جبل مار سركيس لجهة جبل السيدة، وهو مرتَفَع من الصخور الضخمة التي تبدو من إهدن كأنّها آخر الكون وكأنّ ما يليها مملكة الغيب.

بعد سيرٍ جادٍّ دام أكثر من ساعة وقعت هذه الفرقة على روبير، ومعه حافرة تعمل على مولّد التركتور الزراعي الذي يملكه.

أخبرهم روبير، أنه في عتمة ما قبل الفجر، عندما بلغ ظَهر الجبل ـ كان آتياً من ورائه - بدت الأرض، على ضوء التركتور، على شيء من الغرابة، لكنّه لم يأبه للأمر لأنّ بالـه كان منصرفاً إلى ما جاء

من أجله. وحين وصل إلى السنّ ، أنزل الحافرة والريشة الطويلة ونربيش الضغط، وأطفأ الضوء، وشرع في العمل.

يبدأ روبير عمله بالصلاة.

يسمّيها صلاة، وهي طقوس يمارسها قبل الحفر.

ثمّ، ومع انبلاج الفجر، صارت الأمور تتضح رويداً رويداً، حتى وجد نفسه وسط بحر من الزّرقة لا يوصف بكلام، فترك العدّة والتركتور وعاد سيراً على قدميه إلى الجهة الأخرى وراء الجبل حيث تختفي الزرقة.

لاحظ المركز، بواسطة المنظار، أنّ عدد الفرقة الثانية زاد على الخمسة، فسأل:

- من السادس الذي معكم؟

- روبير ، جاء قبل الفجر ليفتّش عن كنزٍ في صخور السنّ!

- هل يملك معلومات؟

- لا نعتقد أنّه يملك معلومات، لكننا لا زلنا نحقق معه.

روبير، بعدما هرب من أزرق الأرض وبلغ الأرض الأليفة، إختبأ بين صخرتين وسحب مسدّسه من خصره ومسكه بيده ليكون جاهزاً لكل طارىء. في الواقع هو لم يهرب، ولم يخف، لكنّه ارتاب، فاحتاط.

وأكثر ما جعله يرتاب، الظنّ بأنّ حارس الكنز غير المنظور، هو الذي أغرق المكان بالأزرق ليبعده عن الكنز. . . إذ لا شكّ أنّ حارس الكنز هذا رأى روبير يتجه نحو المكان في هذا الوقت الذي ينصرف فيه أهالي البلدة إلى أحزانهم الناجمة عن فقد شهيدي الأمس، فحزر نواياه

فموَّه المنطقة كلّها بالأزرق.

أكيد، يعترف روبير، أنه اختار هذا اليوم لأنّ أحداً من الأهالي لا يقصد السنّ فيه. لكنه كان ينوي إنجاز العمل بسرعة ليتسنّىٰ له حضور الجنازة.

وهَمَّ روبير بإطلاق النار مرّةً لكنّه عدل عن ذلك لئلا يُغضب الحارس الخفيّ فينتقم منه.

روبير متأكد من أنّ بين صخور السنّ أو حولها كنزاً مخفياً منذ آلاف السنين، وقد قرأ في كتاب ـ يصرّ على كتمان إسم مالكه ـ أنّ عظماء الملوك كانوا يُدفَنون هنا في السنّ لأنهم كانوا يعتقدون أنّهم سيعودون يوماً إلى الحياة، واختاروا هذه المنطقة بالذات لأنّ الميّت، إذا دُفن فيها حسب أصول كانوا يعرفونها، لا يفنىٰ جسده. وكانوا يحتاطون لذلك فيدفنون معهم كلّ ما يملكون من معادن ثمينة وأحجار كريمة.

وقرأ أيضاً، في الكتاب ذاته، أنّ هذه الصخور الضخمة القائمة هنا، وُضِعت وضعاً، وأنّ استقرارها بهذا الشكل ليس من عمل الصّدفة. أمّا واضعوها فإمّا بشرٌ، لكن جبابرة، وإمّا جِنّ، وأغلب الظن أنهم جنّ، إذ من المستبعد أن يكون بشرٌ ملكوا هذه العزيمة القادرة على التحكّم بصخور هائلة على حرف منحدرٍ عظيم.

أحد رجال الفرقة اعترض على روبير بقوله إن البشر الذين سكنوا هذه المنطقة كانوا أقوياء جداً، ودعم رأيه بخبر من جدّه الذي عثر على خاتم أوسع من عصا المعول الذي كان يضرب به في أرض كانت في الأصل مقبرة، فاهتمّ روبير بهذا الخبر، وسأله عن المكان الذي كان

يعمل فيه جدّه، فأجابه رجل الفرقة أنه لا يعرف، لكنّه وعده لما رآه يلحّ، بالإستعلام من جدّه.

لم ترتوِ نفس روبير من وعد الرّجل، بل ازداد ظمأها، فظلّ يسأله، ويلحّ عليه، حتى استطاع استدراجه فانتحى به جانباً وعرض عليه تجارة:

- إن بُحتَ لي بالمكان ذهبنا إليه معاً وحفرنا فيه. العمل كلّه وأدواته عليّ. عندي عدة كاملة وحافرة. فإذا وجدنا شيئاً نقتسمه. وإذا لم نعثر على شيء فكل التكاليف عليّ وحدي.

وافق الرجل.

- هل ذكر لك جدّك ما كان مرسوماً على الخاتم؟

- غصن أرز!

فتوقّف الدم في صدغيْ روبير! وطلب من الرجل وألحّ، أن يتوقف عن رواية هذه الأخبار، لئلا يتنبّه أحد فيسبقهما إلى الحفر، فالنّاس في هذه الأيام مهتمّون كثيراً بالكنوز الدفينة، وكثيرون منهم لا ينامون الليل، يرودون الأمكنة الواردة أسماؤها في الكتب النادرة. ثمّ كرّر روبير لشريكه الجديد ما كان أخبره للفرقة كلّها، أنّ حارس المكان غير المنظور، هو الذين أغرق الجبل بالزّرقة حين رآه أصاب موضع الكنز، وأسرّ له بأنه أخطأ لمّا أخبر رجال الفرقة الآخرين بمكان الكنز، كان عليه إبقاء الأمر سرّاً. وقال إن مهمتهما الآن معالجة الحارس غير المنظور. يجب تحييده. وذلك ممكن.

- هل أفادكم روبير بشيء؟ سأل المركز.

- روبير يقول إن حارس المكان هو الذي فرش الأزرق.

- عودوا إذن فوراً ومعكم الحارس!

- الحارس؟! الحارس غير منظور!

- هيّئوا أنفسكم للعودة إذن ومعكم روبير وبعض الحجارةالزرقاء. فتّشوا المكان جيداً. وانتظروا إشارة العودة منّا. واحذروا من الضباب.

إبتسم روبير عندما سمع إسمه ينطلق من الجهاز.

الطريق إلى كنيسة السيدة معبّد من زمان، لكنّ الفرقة الثالثة ارتأت بلوغها سيراً على الأقدام، لأنّ الوضع دقيق، والأمر بالغ الخطورة.

أول شيء أفادت عنه هذه الفرقة أنّ حائط الكنيسة الجنوبي المطلّ على الضيعة قد ازرقّ! أمّا حيطانها الأخرى، فلا زال لونها أليفاً.

وأفادت أيضاً عن وجود آثار أقدام زرقاء داخل الكنيسة بالذات، وعن أنّ تمثال السيدة العذراء ذاته أزْرَق. لكنّها لم تستطع الجزم فيما إذا كان هذا التمثال في الأصل أزرق أم أنّ هذا الإزرقاق حديث.

ولمّا بلغ نبأ زرقة تمثال السيدة العذراء المركز، ازداد فيه النشاط، وانتقل الخبر سريعاً إلى الناس فدبّ فيهم شيء من الذعر... وخرّت نساءٌ ساجدات راكعات، بعضهنّ وجوههنّ صوب السيّدة وبعضهنّ وجوههنّ صوب البحر وصَلّين بصوتٍ عالٍ... بما يشبه الصراخ، وقرعن صدورهنّ يطلبن العون من السيّدة ورجَوْنها أن تظلّل

بوشاحها الرجال. . . وكثيرات ركعن وجوههنّ صوب تمثال الفارس، وصلّيْن على نيّته أن يحمي بسيفه أحفاد صحبه، أبناء بلدته. . . ومنهنّ من رأين دمعةً تنحدر من عين حصانه، ومنهنّ من لاحظن وجهه يتجهّم، ومنهنّ من ملأن أكفّهنّ بالماء المقدّس من جُرن الكنيسة ورشَشْنه على الفارس وحصانه أو في الهواء في الإتجاهات جميعاً. . . ومنهنّ من زغردن. . . وكما فعل غصوب يوم إزاحة الستار قبل ستين عاماً حين امتنع الستار عن أن ينسحب، قفز أحد الشباب من فوق سياج الحديقة، قفزةً واحدة، واستقرّ واقفاً على قاعدةالتمثال ممسكاً بيسراه خصرالبطل، وبيمناه تناول مسدّسه من خصره وراح يطلق الرصاص صوب السماء ويصرخ:

- لعيونك يا بيك!

حتى أفرغ المشط.

وقبل أن ينزل، رمت إليه سيّدة بوشاحٍ نزعته عن رأسها فتناوله، وتقدّم به نحو رأس البيك حتى بلغه، فمسح الدمع عن عينيه، ثمّ قبّل غمد السيف، وقبّل عنق الحصان.

ونزل.

لكنّه لم ينزل قفزةً واحدةً كما فعل عند الصعود، بل نزل أولاً عن القاعدة إلى أرض الحديقة، ثم تسلّق سياج الحديد وقفز عنه ليصير خارجاً.

- أوقفوا إطلاق النار! جاء الصوت من الدركر. حتى نستطيع أن نسمع.

أمّا النبأ الذي ورد من فرقة السيدة والذي كاد يؤدي إلى كارثة

كبرىٰ فهو عثور الفرقة هناك على عدد من النساء محاضَرات داخل الكنيسة، لا يجرؤن على الخروج منها. وأفاد النبأ أيضاً أنّ هؤلاء النساء، قد انبلج الفجر عليهنّ وهنّ بعدُ في الكنيسة، ولمّا همَمْن بالخروج، بعد أن أنهين صلاتهنّ، وجدن أنفسهنّ وسط هذا البحر الهائل من الزّرقة فخِفْن وانكفأن إلى الداخل واعتصمن وراء المذبح تحتْ رجليْ مريم. وأخبرن أيضاً أنهنّ لمّا سمعن أجراس البلدة تقرع قرعاً متواصلاً، وكذلك أجراس القرى المجاورة، قدّرْن أنّ الكارثة وقعت، فلم يبق لهنّ إذن إلا الصلاة وانتظار ما سيكون.

أما عن زرقة تمثال السيدة العذراء، فقالت النسوة إن الكنيسة كانت معتمةً عند وصولهنّ، فأضأن شموعاً، ولم يَرْتَبْن أوّل الأمر في شيء إلى أن بدأ ينبلج الفجر وبدأت تبين معه زرقة التمثال، وأضفن أنهنّ لا يعرفن أكثر من ذلك.

- هل أصاب النساءَ سوء؟ سأل المركز.

- لا! أجابت الفرقة. فكلهنّ بخير لكنهنّ مضطربات.

- سنرسل سيارة لإعادتهنّ حينما يتيسّر لنا ذلك.

ثمّ طلب المركز من رجال الفرقة ألا يختفوا جميعهم في الكنيسة، وأن يُبقوا واحداً منهم على الأقلّ خارجها بادياً عليهم. ثم طلب معرفة أسماء النساء.

وحين بلغ البلدة خبر وجود النساء محاضَرات في كنيسة السيدة، وأسماؤهنّ، ولْوَلَتْ قريباتهنّ وعظُمَ الأمر كثيراً على الرجال.

أولادهنّ قرروا الإنطلاق فوراً لتحريرهنّ، مهما كان الثمن، وقبل أن تُستكمَل نتائج الإستطلاع الذي تقوم به الفرق الثلاث. لكنّ رجال

المركز استطاعوا أن يقنعوهم بالتريّث حتى ينجلي الغموض، خصوصاً بعد أن أكّدوا لهم أنّ أي سوء لم يصب واحدةً منهن. ولمزيد من الطّمأنة، طلب المركز من رجال الفرقة أن يُسمِعوا أصوات النساء إلى أولادهنّ وأقربائهنّ. وقبل أن يتمّ هذا الإتصال، طلب المركز من الفرقة أن تنبِّه النساء فلا يعظِّمن الأمر أو يبكين أو يستنجدن. وهكذا كان، فكلّمت النساء المحاصَرات أولادَهنّ كما يتكلّم الرجال. ودبّت الحميّة في إحداهنّ وهي على الجهاز فزغردت.

ليست النساء المحاصَرات ما كان يشغل بال المركز، إنما هذه الجبال من الغيوم التي ترتفع فوق سطح البحر وتقترب.

جبال من الغيوم السوداء، ترتفع ببطء، تختزن من الرعود ما يُنذر بالآخرة. وتتقدّم. لم ينتبه إليها الناس حين انطلقت الفرق. لكنها الآن حقيقة قاسية، مرعبة، كجيوش معادية.

كان الجوّ لا يزال صافياً واضحاً حين طلب المركز من الفرق الثلاث أن تسرع في إنهاء عملياتها قبل أن يبلغها الضباب.

- ساعة أو ساعتان وسيجتاح الضباب المنطقة كلها.

لكنّ ربع ساعة لم تكد تمضي على هذا الإتصال حتى فاجأت غيمةٌ الفرقةَ الأولى فوق النّبع. فهبطت عليهم بهدوء، ومن دون أن تثير أيّ انتباه، من فوق، من أعلى الجبل ومن ورائه.

إتصلت الفرقة بالمركز فور أن لاحظت الغيمة، وطلبت منه أن يبقى على اتصالٍ دائمٍ معها. فردّ المركز بأنّه يراها ويراقبها.

لم تكن هذه الفرقة في الواقع تنتظر أن تجيئها غيمة من وراء الجبال، أي من الجهة الشمالية الشرقية، خصوصاً وأنها كانت تراقب صعود الغيم من جهة البحر، أي من الجهة الغربية، مع أنّ الراعي

حـذّرهم وأخبرهم بـأنّ الغيمة في الجبـل كالمـوت! لا أحد يعـرف متى تجيء ولا من أين!؟

كان رجال الفرقة مـطمئنّين إلى أنّ متّسعاً من الـوقت يفصلهم عن موعد بلوغ الغيم منطقةَ عملياتهم.

وهبـطت الغيمة كـأنّها تتـزحلق، وظلّت تهبط حتى غمـرتهم. لم تكن سميكةً ولا داكنة.

وحين باتوا في جوفها صراحةً إقتربوا من بعضهم البعض.

- تماسكوا بالأيدي! جاءهم الصوت من الجهاز.

كان الراعي بعيـداً عنهم أمتاراً، فنـادوه فلم يُعِرْ انتبـاهاً لنـدائهم وأصرّ على البقاء حيث هو، لكنّه حين بلغتـه الغيمة جلس على الأرض وأسند ظهره إلى جذع صنوبرة.

رجال الفرقـة ظلّوا يرون بعضهم بعضـاً. أمّا الـراعي فاختفى عن أبصارهم.

- إنتبِهوا! جاءهم الصوت من المركـز. وأخبرهم بـأنها صغيـرة، وأنها لا تزال تهبط وستنجلي سريعاً.

- لماذا لا تجيبون؟ جاءهم الصوت من جديد.

فحاول حامـل الجهاز أن يحـرّر يده من يـد رفيقه ليجيب المـركز فلم يفهم رفيقه مقصده فـظلّ شادّاً على يـده ممّا اضـطرّه إلى تخليصها منه بالقوّة فكاد لذلك أن يقع على الأرض، لكنه تمـالك نفسـه واستطاع بعد عدة خطوات عشوائية أن يوقف اندفاعته وأن يعود إلى تـوازنه. لكنّ الجهاز وقع من يده!

وقع الجهاز وتدحرج أمتاراً وغاب عن أنظارهم. وانتظروا دقائق قبل أن يلوم أحدٌ أحداً.

ثم بدأت تنقشع الغيمة. فجاءهم الصوت:

- انفرجتْ! إنّها تهبط مبتعدةً عنكم. لماذا لا تجيبون؟

كانوا يتطلّعون إلى مصدر الصوت الذي كان مغموراً بذيل الغيمة المنسحبة. وحين اتضح المكان نزل أحدهم يبحث عن الجهاز متجهاً نحو مصدر الصوت الذي يكرّر بقلق:

- أجيبوا!

فحظي به ورفعه بسرعة إلى مستوى أذنه وضغط على الزرّ ليجيب على ندائهم. لكنّ الزرّ لم يعمل! انكسر!

- ماذا يحدث لكم! الغيمة لا تزال تمنعنا من رؤيتكم.

في هذه الأثناء ، على الكتلة، كادت إحدى أمّهات رجال الفرقة أن تولول لولا أن اقترب منها رجل من المركز وصاح بها، وأَسمعَ كلّ من كان هناك:

- يجب أن يعلم الجميع أنّنا لسنا في نزهة، وأنّنا جميعاً معرّضون للخطر. وأنّ الطريق لا يزال في أوّله وعلينا أن نجتازه حتى آخره مهما كلّفنا الأمر من تضحيات. أتريدون أن نرفع أيدينا ونعلن استسلامنا؟!

فلم يجبه أحد!

إمرأةٌ واحدة بكت. وامرأة واحدة أُغمي عليها. وامرأة زغردت. والنسوة الأخريات أحطن أفواههنّ بأطراف مناديلهنّ.

- الحِمْل ثقيل!

ونسوةٌ عُدن إلى بيوتهنّ.

ونسوةٌ انصرفن إلى تهيئة الطعام للرجال!

- كل واحد منّا إلى عمله لا تنسوا أنّ عندنا جثّتين لم ندفنهما بعد! - قال رجل المركز - على كلّ واحد منا أن يقدّم ما يستطيع، فالقادر على حمل السلاح سندعوه إلى حمل السلاح في الوقت المناسب. لكن الحرب بالجبهة الداخلية أيضاً وليست فقط على خطوط النار. يجب أن نؤمّن كل شروط الصمود.

ونسوةٌ ملأن بالشمع أعلى السور الحديدي لحديقة تمثال بوسف بك كرم. وكان هذا الشمع يذوب بسرعة أو ينطفىء فتعمد النسوة إلى استبداله أو إشعاله.

ونسوة راكعات وجوههنّ نحو البيك، كأنّهنّ يحتمين بسيفه. كلهنّ بثياب حِدادٍ سوداء.

وما كادت الغيمة الأولىٰ أن تنحسر حتى أطلّت غيمة أخرى من وراء الجبل أيضاً.

أطلّت أولاً برأسٍ لا يشبه شيئاً، ثمّ تحوّل الرأس إلى فمٍ عظيم، ثمّ تدافع جسمها نحو فمها، حتى ابتلعه.

كانت تتحوّل سريعاً وهي تهبط.

- غيمة ثانية أكبر من الأولى.

- تماسكوا!

وبعد دقائق، ملأت الغيمة المكان وحجبته عن المركز.

في هذه الأثناء، كانت غيوم كثيرة بدأت تظهر هنا وهنالك في السماء على ارتفاعات متفاوتة. وجبال الغيوم المتقدّمة من صوب البحر تستعدّ للإنقضاض. وغيوم صغيرة بدأت تنفصل عنها وتتقدّم مسرعة. وقد بلغ عددٌ منها قَرْن جبل أَيْطُو، الذي ينتصب فعلاً كقرنٍ بين إهدن والبحر.

وواحدة دخلت وادي قاديشا من جهة قرية سرعل.

كانت أخبار الغيوم هذه تصل المركز عبر التوكي واكي من فرق الرصد والحراسة الموزّعة على تخوم البلدة.

الأخبار الآن، والساعة صارت التاسعة، أنّ الغيوم الجرّارة تلِجُ وادي قاديشا وقزحيّا تحت إهدن، وترتفع. وهي الآن تجتاح قرية بيت بلعيس، وأنّ خطوتها التالية كَنَارَ إهدن عند بيت رشيد. ورشيد لا يزال في بيته يرفض أن يتركه وأن ينكفىء إلى البلدة.

وسَرَتْ أخبار مفادها أنّ سايد ومعه أصحابه ذهبوا بالسيارة لعند رشيد، والطريق ليست معبّدةً بعد، وسهروا عنده حتى أول الفجر، وأنّ دوريّة فاجأتهم عائدين فأوقفتهم ونقلتهم إلى حيث حُقِّق معهم، وتبيّن أن سيارة سايد تحوي آلةً تلتقط كل الموجات التي يلتقطها راديو السيارة، لكنّها لا تبثّ. أُفرج عنهم بعد تدخّل أهلهم وأقربائهم، الذين كان بعضهم مسلّحاً.

حين فاجأت الدوريّة سايد ورفاقه مدّ سركيس يده إلى خصره وتناول منه مسدّساً، فصرخ به رفاقه أن يرميه من شبّاك السيارة. فرماه تحت حافّة الطريق.

رشيد، وجد المسدّس في اليوم التالي، وأعاده إلى سركيس من

دون أن ينسىٰ تذكيره:

- أقول لك دائماً أنّ السلاح لا يحمي.

أمّا الغيمة التيٰ وفدت من وراء جبل السيدة وغمرت الكنيسة وما حولها فاجأت الفرقة والنساء وشغلت بالهم. وفاجأت أيضاً المركز لكنّها لم تشغل باله، لأنّ الكنيسة يمكن الوصول إليها بالسيارة.

وكذلك الفرقة الثانية في السنّ لم تشغل بال المركز لأنّ روبير معه تركتور.

أبو البدوي رأى الدورية تنقل سايد ورفاقه، فاقترب منهم ليستفسر فأعلموه بالسبب، فأوقفهم عن الكلام وهو يرفع قبّعته عن رأسه ويرميها إلى الأرض لشدّة غضبه:

- أنا جدّي حارب مع يوسف بك! لا تخبروني بشيء عن هذا. لا أريد أن أسمع!

أبو البدوي بلغ من العمر الثمانين.

ثمّ انحنىٰ ليتناول قبّعته ويمضي، فسألته الدورية أين هو ذاهب، فقال إلى الحقل، لكن سيعود سريعاً ليحضر الجنازة. فطلبت منه أن يعود إلى البلدة فوراً وأن ينتظر حتى تتضح الأمور.

لكنّ النسوة احترن في نوع المآكل:

فماذا يؤكَل في مثل هذا اليوم النادر؟

بل ما طبيعة هذا اليوم؟ أهو يوم حزنٍ إذ في البلدة جثّتان؟ أم هو يوم مَشْهودٌ يجب فيه إطعام الرجال على قدر جهودهم وتضحياتهم؟

فحارت النساء، فأردن الإستئناس برأي الرجال، لكنّ الرجال منصرفون إلى الشأن الآخر.

فتدوالت النساء فيما بينهنّ واستعرضن الأوضاع: التّبولة مستبعَدةٌ سلفاً، فاليوم ليس يوم فرحٍ أو ربيع، والمناسبة ليست زواجاً أو لقاءً، أو عصر نهارٍ أنيس، أو وليمة لمدعوّين.

الكُبّة مناسِبة ـ لحم وبرغل! وإلى جانبها طبيخ لبن الماعز.

لكنّ أحداً من اللحامين لم يكن ليذبح في مثل هذا الصباح. فماذا يأكل الرجال إذن؟ فقصد عدد من النسوة اللحامين في بيوتهم، فلم يجدن أحداً منهم. اللحامون جميعهم كانوا متوزّعين على فرق الإستطلاع.

فاستشرن المركز الذي اتصل بفرقة السيّدة وطلب منها إرسال ناصيف. فاستجابت الفرقة للطلب.

كـانت النسوة تنتـظر ناصيف أمـام باب محله المغلق حين وصـل ومعـه العجـل. ففتـح محلّه وعمـد فـوراً إلى العجـل ربط أقـدامـه إلى الأرض وذبحه.

- سبحانَ من أحَلّك للذبح!

جميـع النسوة أدرن ظهـورهنّ بينما كـانت السكّين تعمل في عنق العجل، إلا واحدة منهنّ سقـطت على الأرض مغميّاً عليهـا، فانهمكت بهـا رفيقاتهـا، لكنّها لم تَصْـحُ فـوراً، فـطلبن من نـاصيف مسـاعـدتهنّ لحملها إلى مقهى كعدو المقابل.

- سبعة بطون ذكور وتخافين من رؤية الدم!؟

سمعت المرأة ولم تسمع ما قالـه ناصيف قبـل أن ينصرف عـائداً إلى عمله. ولم تجبه بشيء. لكنها قالت لزميلاتهـا فيما بعـد:

- بلى! وضعتُ ثلاث عشرة مرّةً رأيت فيها الـدم. لكنّه كـان دماً مختلفاً.

كيف يمكن للبلدة أن تنام هذه الليلة!؟

فالفِرق الثلاث التي لم يتسنّ لها العودة إلا عند العصر، استُبدلت بأخرى للحراسة. وضباب سميك يغمر البلدة والمكان.

والقتيلان لم يُدفَنا بعد، فالجنازة أُجِّلت إلى ما بعد غد الأحد، لاستحالة إجرائها بعد ظهر هذا النهار.

وأخبار معارك بيروت تقضّ المضاجع.

ومَن استطاع أن يغفو من الناس على تعب، أفاق على أجراس الكنائس تقرع مرةً أخرى قرعاً متواصلاً، وزخّات غزيرة من الرصاص في كل مكان!

- ماذا أيضاً!؟

- غادر البيك حصانه!

فقد قصدت حفيدة البيك الكنيسة في ساعة متقدّمة من الليل بصحبة جمهرةٍ من الرجال، فدخلتها وحدها وظلّ الرجال في انتظارها خارجاً. وكان في الكنيسة كثير من المصلّين، خصوصاً من النساء، فطلبت منهم مغادرتها لوقت قصير، ثم أغلقت الباب، ومضت، على ضوء الشموع، إلى حيث يُسجّىٰ جثمان الفارس.

أضاءت شمعةً أولاً على نيّته. وصلّت بمسبحتها.

ثم تناولت من جيبها مفتاحاً، تحتفظ بـه وحدهـا، ولا أحد يملك مثله، وفتحت القفـل ورفعت الغطاء الـزجـاجي. ثم خلعت حـذاءهـا، وأنهضت جسمَها لتستطيـع أن تبلغ برجلهـا داخل الصنـدوق، ثم رجلها الثانية... ثم صـارت واقفةً عنـد قدمي الفـارس. وجهُها جِهَـة وجهه. هي واقفة وهو ممدّد أمامها بكامل جثمانه.

وبـأصابـع رجلها، شـدّت برفـق علـى أصـابع رجله، فـاستوىٰ واقفاً أمامها، مباشرةً، منتصباً كالسيف ، جاهزاً، بكل قامته التي تفـوق قامتها بشبرٍ أو يزيد.

ركعت عند قدميه وصلّت سريعاً، لكن بعمق وخشوع، ثم علّقت مسبحتها في رقبتها وهمّت بالشروع في عملها لولا أنّ ضجـةً استوقفتهـا فنَصَتتْ: إحدى النساء تريد الـدخول إلى الكنيسـة والرجـال يستمهلونها حتى تنتهي الحفيدة من عملها. لم تسأل المرأة عن طبيعة العمل هـذا. سكتت وانصرفت دون أن تضيف كلمة.

تنـاولت الحفيدة من عُبِّهـا ورقةً فيهـا بخـور، وضعتـه في مبخـرةٍ صغيرةٍ جلبتها معها، وأشعلت جمرةً فيها، فتصاعد الدخـان وغمر قـامة الفارس، وعبق المكان كلّه بالرائحة المقدّسة. بعدهـا، رفعت طربـوشه الأحمـر عن رأسـه. ثم نـزعت عنـه الجـاكيت والقميص والسـروال والجوارب. ثم ألبسته الثياب الجديدة، وأعادته كما كان، مستلقياً.

لكنّهـا ما كـادت تغلق الغطاء الـزجاجي، وتقفله، محـدثةً ضجـةً لا يمكن تفاديها، حتى علا صوت امرأة في الخارج يقول:

- ترجَّلَ البيك عن حصانه!

وكان الليل عميقاً جداً بسبب الضباب السميك. فالواقفون على بعد أمتار من التمثال، لم يكن في استطاعتهم رؤيته.

ولا زالت هذه المرأة تصيح وهي تتقدّم نحو التمثال وتعلن نبأ المعجزة، حتى بلغته وخرّت على ركبتيها ساجدةً تضرب صدرها وتضرع للفارس بأن يخيّم كغيمة على المكان، وأن يعمي بصر الأعداء، وأن يحوِّل رصاصهم إلى ماء.

وتبعتها النسوة الأخريات وسجدن معها.

وتقدّم رجالٌ بخَفَرٍ أولاً.

ورجالٌ تهامسوا فيما بينهم أنها تستطيع أن ترى ما لا يستطيعون، لأنّها طيّبة النيّة.

لم تسرع الحفيدة في الخروج. فالحفيدة تحافظ على طقسها مهما جرىٰ. بخّرتْ ثياب الفارس العتيقة ووضعتها في كيس من قماش وصلّت، له، وعلى نيّته، ثم لبست حذاءها ونزلت وتقدّمت إلى المذبح الرئيسي في الكنيسة، حيث صلّت أيضاً. ثم فتحت باب الكنيسة وخرجت.

كان قسم من الرجال لا يزال في انتظارها، والقسم الآخر تقدّم نحو التمثال.

- ماذا؟ سألت الحفيدة.

- إمرأة رأت بعينها الحصان من دون الفارس.

فتقدّمت وتقدّم معها الرجال: الفارس على حصانه! فدبّ في الناس ما يشبه الذعر.

- إستَطْلَعَ وعاد! صاح أحد الرجال.

وأسرع آخر إلى الكنيسة يتعمشق بحبل الجرس، وتبعه آخرون، وعلى الفور سُمعت أصوات رشَقَات ناريّة من مركز الحراسة في أعالي الجبال، فأسرع رجال المركز إلى أجهزتهم يطمئنونهم. ويخبرونهم بما جرىٰ.

لكنّ الحرّاس أثارهم الخبر فراحوا يطلقون النار بغزارةٍ أكثر. فاتصل بهم المركز مستفسراً عن السبب وعمّا إذا كان من داعٍ لذلك فطمأنوه. فطلب إليهم عند ذلك إيقاف إطلاق النار لأنّ بال الأهالي بدأ ينشغل عليهم وبدأ البعض يظنّ أنهم يتعرّضون لسوءٍ ما.

يوسف الذي كان غائباً أوّل الحادثة، تقدّم من التمثال ووقف يتأمّله طويلاً ويده على خصره. ثم توجّه إليه قائلاً:

- بغيابي!

وما كاد أثر هذه الحادثة أن يتلاشى، والرصاص أن يسكت، والأجراس أن تهدأ، حتى بلغت الكتلةَ امرأةٌ في الخامسة والثلاثين من العمر، حافيةً، راكضةً، في ثياب النوم، تولول وتطلب النجدة فتراكض نحوها الناس.

كانت تشهق بالبكاء وهي تروي للمتحلِّقين حولها كيف أنّ زوجها يريد إرغامها على الحبَلَ، لأنّ أخاه قُتل منذ شهر في بيروت، وليس لديهما ولدٌ يحمل إسمه. يريد ولداً صبياً يعطيه إسم أخيه. وهي ليس لديها أي اعتراض لولا أنها ضعيفة القلب، والحَبَل كما قال لها الطبيب خطر على حياتها.

وبينما كانت تروي تعاستها، وصلت جارتها أم كامل، وعاجلتها بالقول:

- عودي إلى بَيْتك. صغارك أفاقوا من النوم. وهم يبكون ويصرخون

- وزوجي؟! أجابت المرأة ـ لا أستطيع الإطمئنان إليه إنْ عدتُ سيفعل بي ما يشاء بالقوّة.

- عودي إلى بيتك بسرعة. أجابت أم كامل ـ واسكتي. ليس هنا المكان المناسب للكلام! إحترمي نفسك!

ثم تقدّمت منها وأمسكتها بذراعها وقالت لها:

- إمشي!

فعادت تشهق بالبكاء، فقالت لها أم كامل:

- إمشي لا عليكِ! سأبقىٰ معك.

الرجال الذين سمعوا شكواها، تداولوا في أمر إرسال بعض المسلّحين ليطلبوا من زوجها التزام العقل والمنطق، لكنّ الرجال الوافدين الجدد الذين لم يسمعوا المرأة تروي تعاستها بنفسها، بعدما اطّلعوا على قصتها، رأوا أنّ الوقت الآن ليس لهذه الأمور.

إستطاعت أم سايد إقناع سايد بالبقاء في البيت ليلة أمس لكنّها اليوم في حيرة. فهي تريده أن يذهب إلى الجنازة، وتريده في الوقت ذاته أن يبقىٰ في البيت.

والجنازة يقترب موعدها، والبلدة كلّها تعيش على وقع اقتراب هذا الموعد. وتمّ الإتفاق بين المعنيّين على أن تكون واحدة للشهيدين.

كانت أم سايد تتهيّأ للخروج إلى المحفلين حين دخل الناطور، وجلس يحكي رأيه في الأمور ويدعم هذا الرأي بمشاهداته أثناء عمله.

عَدَدُ الشبّاب العُزّب في البلدة أكثر من عدد المتزوّجين، قال الناطور، فليس بالشّابِّ اليوم أي حاجةٍ تدفعه للزواج وهو حاصلٌ على ما يشتهي. وقرّب فمه من أذن سايد وأسَرَّ له، حتى لا تسمع والدته، أنّ بناتٍ عديدات من البلدة هنّ نساء!

إنّه الغضب.

أليس الله قديراً على كل شيء؟ أليس قادراً على أن ينقل البحر إلى الجبل؟ لقد نقله! يجب أن تُصان الأعراض.

لم تنتبه أم سايد إلى أن طارق كان غائباً عن البيت إلا بعد أن انصرف الناطور، فخرجت بسرعة تبحث عنه فلم تجده. فنادت بصوتٍ

عالٍ، فلم يردّ عليها. فعادت تخبر سايد الذي سمعها تنادي. فغضب لغياب إبنه.

كان لم يبق على بدء الجنازة إلا ساعة حين حضر طارق، وفي يده حجرٌ قال إنّه حمله معه من جبل السيّدة، فاضطربت أم سايد، واحمرّ وجهها حتى كاد الدم ينفر منه، واحتارت فيما تفعل، فقالت:

- لماذا جئت به إلينا. هذا شرّ! إرْمِهِ بعيداً!

فاعترض طارق. لكنّه لما رآها تصرّ وتلحّ هَمّ بإلقائه على حرف الطريق فصرخت به ألّا يرميه هنا، بل بعيداً بعيداً، هناك، في الوادي على طرف البلدة. لكنّ طارق تذمّر وامتنع، فتدخّل والده، ووعدها بأن يرميه بعيداً بنفسه بعد الجنازة.

رجل واحد دخل إلى حيث يقيم الرجال وتقدّم حتى بلغ محسن، وانحنىٰ ليسرّ في أذنه أنّه الوقت. فنهض على الفور وقد فاضت عيناه بالدمع، ونهض معه أولاده والأقرباء وأصدقاء ولده، وقصدوا جميعاً جثمان شربل. فأفسحت لهم النساء طريقاً حتى استطاعوا بلوغه. وأندبوا عليه يبكونه البكاء الأخير، وراحت النساء كما في المرّات السابقة تنهر الواحدة الأخرى طالبةً منها ترك الرجال يبكون.

- لَيْشْ؟ كان يصرخ به والده.

ظلّ محسن مندباً على ولده يبكيه حتى كاد يغمى عليه، فرُفِع عنه أخيراً بالقوة، وما أن غادر المكان مع صحبه حتى دخل سمعان وسركيس ويوسف، يحملون التابوت لينقلوا الجثة إليه، فاشتعل المكان اشتعالاً بالصراخ، ونهضت النساء جميعهنّ عن الكراسي، ورُحْن في الرقص.

نادمةٌ أمّ شربل! ليتها تركت شربل هناك في كراكاس.

وما مِن امرأةٍ إلاّ أودعت شربل رسالةً لقريب. هذه تطلب منه نقل سلامها، وتلك تطلب منه إبلاغ لومها، وأخرىٰ تطلب منه أن يشرح الحال.

حين همّ الرجال الثلاثة برفع الجثّة عن التخت إنكبّت أم شربل

عليها ومنعتهم من رفعها. ثم استطاعت، رغم محاولات إبعادها من قبل النساء، أن تستوي راكعةً على التخت، وأن تأخذ جسد ابنها بين ذراعيها وأن تلتصق به التصاقاً أرادته أبدياً.

- ليش ما بتسمع من أمّك يا ماما قوم لا تخلّيهن ياخدوك!

ولّما استطاعت النسوة إبعادها عن ابنها أُغمي عليها.

- ماء!

وجيء بالماء ومُرح به وجهها.

- أصْحِي يا حَنّه! لا تفوّتي عليكِ شيئاً من هذا العيد!

عند خروج التابوت محمولاً على أكفّ الرجال الثلاثة من باب البيت، إنطلق الرصاص بغزارة.

شبابٌ مسلّحون برشّاشات، مزنّرون بالذخائر، وجوههم متجهِّمة، يطلقون الرصاص في الهواء صوب السماء، والناس حولهم يبتعدون لئلا تصيبهم الفراغات الحامية المنطلقة من بيوت النار.

ومن أصابته فراغةٌ وأحرقته، فلم تكن حروقه مميتة ولا خطرة.

ورجلٌ مسنّ تعدّىٰ الستين، وقف أمام التابوت، مانعاً حامله من التقدّم، والتابوت لا يزال قسم منه في الداخل، واستطاع أن يُسكت الناس جميعاً، وأن يوقف إطلاق النار ويُنشد:

لا تشمتوا يا عِدا والموت ما خلاّ حَدَا

أنشد ذلك وهو يشير بيدٍ إلى التابوت وبأخرىٰ إلى الناس. وكان وجهه محتقناً بالدم والغضب.

وعـادت النار تُـطلق من جديـد. وتقـدّم عـدد من الشبـاب وحمـل التابوت عن الرجال الذين أخرجوه.

وعندما تقدّم الموكب قليلاً، توقف إطلاق النار.

الجميع الآن يسيرون بصمت! الجثة في التابوت المكشوف تتقـدّمهم محمولةً على الأيدي. وراء التـابوت أهل الشهيد الـذّكور حـولهم الأقربـاء والأصدقاء يتبعهم الناس جميعاً.

وخلف مـوكب الرجـال يجرجـر موكب النسـاء نفسه. الـوالدة أولاً محاطة بالقريبـات والصديقـات وبعدهنّ النسـاء عامّـةً. وجميعهنّ في ثياب سـوداء، وفساتـين تصل إلى مـا بعد الـركبة، وأكمامٌ طويلةٌ حتى المعصم، وجوارب سوداء، رقيقة نسبياً عند الصبايـا وسميكة عنـد المسنّات. وعـلى الرؤوس مناديل سوداء.

عــدد كبـير من النســوة كنّ منتفخـات البــطون من دون أن يكنّ حوامل. وقسم منهنّ تتخطّىٰ تنانيرُهنّ البيضاء فساتينَهنّ السوداء بأصبع أو أصبعين.

كان تعب اليومين الأخيرين على وجوههنّ لا يستطعن إخفاءه.

أمّـا المسلّحون فكـانوا يتـوزّعون ثـلاثة صفـوف. الصف الأول في المقدمة يسبق التابوت بأمتار عديدة معـترضاً الـطريق اعتراضـاً، والصف الثاني، المَيْمَنة، والصف الثالث المَيْسَرة، وفيهما تسير العناصر الواحد وراء الآخر.

من النـوافذ في الـطريق، يميناً ويسـاراً، كانت تـطلّ النسوة اللواتي منعتهنّ الظروف القاهرة من المشاركـة. كنّ يرْشُـشْن العـطور. ويصرخن

منتحِبات. ويدعين القتيل للزيارة. ومحارم بيضاء على أفواههنّ والأنوف يرفعنها عند الكلام. والدموع في العيون.

أمّا الأولاد فكانوا على السطوح يقتربون من حروفها دون حذر، فيشير إليهم الكبار بالإبتعاد، وأحياناً يضطرّ أحدهم للصراخ بهم.

كان الموكب تقدّم نسبياً في اتجاه الميدان، عندما انطلق الرصاص رهيباً من الناحية الشرقية للبلدة حيث بيت أهل بطرس. كانت الجبال والوديان تردّد الصدىٰ. وعلى الوجوه تنعكس المشاعر اصفراراً وصمتاً عميقاً.

وصلت الجثّتان في الوقت نفسه تقريباً إلى الميدان، الذي كان قبل وصولهما مليئاً بالناس، واختلط الموكبان، وسبح التابوتان فوق بحرٍ من الجموع الغفيرة.

المسلّحون توزّعوا الزوايا وبعضهم بقي بين الجموع. وأُطلقت نيران كثيرة. وكادت تقع كارثة لولا العناية، فدبّت بلبلة على أثرها. كاد أحد المسلّحين يقع على الأرض وهو يطلق النار. ارتطمت رجله. وأصاب الرصاص المنطلق من رشاشه أعلى مقهى جريج. وبأعجوبة لم يُصب أحد. ظلّ وهو يهوي شادّاً على الزّناد!

التابوت الذي يحضن جثة شربل، وصل بسهولة نسبياً إلى حافّة المسرح الذي بناه الشباب استعداداً للحفلة الموعودة. لكنّ وصول تابوت بطرس إلى المكان كان أمراً عسيراً. إذ كان على حامليه اجتياز الميدان من أسفله حتى أعلاه حيث يقوم المسرح.

هناك، تحت المسرح تماماً، جرىٰ الرقص بالتابوتين المكشوفين.

الرجل ذاته الذي كان على رأس المعارضين للطبل ليلة العشاء على

الميدان، صعد إلى المسرح وظلّ يصرخ حتى أسكت الناس جميعاً، وأوقف الرقص بالتابوتين. ولما اطمأنّ إلى أنّ الجمهور كلّه ينصت له قال:

- إسمعوا ما أنشد العاقوري عندما طلب منه يوسف بك كرم أن يقول شيئاً، في حرج إهدن، وقد انتهى إليه كرم ورجاله بعد معركة بنشعي:

لا خَلفي ولا قدّامي ولا حدَايْ وعجاج الخيل تطربْني وآلْحْدَايْ
ويا مَتْن السَّرْجْ يا قَبري ولَحْدايْ عِنْدْ مَا يصيرْ عَ إهدنْ طَلَبْ

وبعد أن أنهى هذا الرجل، الذي لم يكن من أقرباء أحد من الفريقين إنشاد هذين البيتين، قال موجّهاً كلامه إلى بطرس وشربل:

- روحوا بقا الله معكن!

ثم استدرك لكن بعصبيّة متعاظمة:

- بَسْ نحنا باقيين هَوْن!

ونزل عن المسرح.

رافق صمتُ الناس كلامَه، لكنّ الرصاص اندلع عند العبارة الأخيرة وطال، غزيراً، غزيراً، حتى كلّمه رصاص الفرق المكلّفة بالحراسة على رؤوس الجبال. وسُمع رصاصٌ كثير أيضاً ينطلق من القرى المجاورة، التي كانت وفودٌ منها تشارك في الجنازة.

أم بطرس، في هذه الأثناء، استطاعت في غفلةٍ من جميع الحاضرين الصعود إلى المسرح، حيث راحت ترقص، وتخاطب ابنها الذي صار باستطاعتها أن تراه من مكانها العالي.

بنطلونه ذاته لا يزال حول رقبتها.

ثم نظرت إلى شربل وقالت له:

- وَلَـوّ! كيف خلّيت بطرس يموت!؟

أنطوان استدار وابتعد.

وفجأةً تقدّم أحد المسلّحين إلى وسط الميـدان، وأدار فوهـة رشاشـه باتجاه السماء، وراح يستديـر على نفسـه ويطلق النـار في كل الاتجـاهات، بوجهٍ شديد الغضب.

أحسّ النـاس سريعاً بغيـظه، فـابتعـدوا مُخْلين لـه المكـان وحـده. خصـوصاً أنّ خطّ نـاره كان يهبط شيئـاً فشيئاً حتى كـاد أن يصيب أعـالي البيوت. وبعد أن أفرغ مشطه عاد ولقّم رشّاشه من جديد، وأفرغـه وظلّ كذلك، وحده، لا يشاركـه أحد حتى أفـرغ كلّ أمشـاطه، فـرفع عنـدئذ رشاشه بيده أعلى ما استطاع ورماه إلى الأرض بقوّة وهـو يشتم. ويجدّف. كان الله المستهدف بـالتجديف. ثمّ قـال وهو رافـع رأسه يجـول بنظره في السماء:

- وَيْنَكْ؟ طلّ؟ من شو خايف؟

وجلس على الأرض يبكي يشهق ويزفر كالطفل. فـاقترب منـه أحد يهدّئه. وأقنعه بالوقوف، ثمّ أدخله مقهى كعدو.

دام الصمت بعد هذه الحادثة أكثر من لحظات، تسلّل أثناءها عـدد من الصِّبيـة إلى الميدان، وراحـوا يلملمون الفـراغات بسرعـة، وانسحبوا بعد أن ملأوا جيوبهم وأيديهم وما استطاعوا.

كان طارق بينهم. لاحظه سايد، ولاحظ أيضاً غصـوناً صغيـرةً من الدّلب تملأ الميدان، أوقعها الرصاص. ولا زال بعضها يقع. بهدوء.

شجرات من الدُّلب كبيرة، وقليل من الإهدنيين يعرف أنّ عددها تسع.

وبعد أن انقضت هذه اللحظات، فوجىء الناس، خصوصاً الواقفون في الجهة التحتانيّة من الميدان بأنّ التابوتين اختفيا عن الأعين إذ وضعهما حاملوهما على حرف المسرح ليتّقوا رصاص الغاضب الذي كاد يصيبهم.

وبعد ثوانٍ من الحيرة، تدفّق الناس نحو التابوتين، ورفعوهما. ولكثرة الأيدي التي امتدّت ولم تستطع بلوغهما، انطلق صوتٌ يقول:

- على الأصابع فقط!

فحُمِلا على الأصابع الخمس فقط!

ثم لا زالت الأيدي الكثيرة تمتدّ، والتابوتان كأنّهما لا يتقدمان لكثرة الناس الملتفّة حولهما.

- على ثلاث أصابع فقط!

فحُمِلا على ثلاث أصابع.

ساعة كاملة اقتضاها اجتياز عشرات الأمتار من الميدان إلى الكنيسة، وقع خلالها نظر سايد على بطرس ونافذ يمدّان أيديهما ليشاركا في حمل التابوتين ولولا أنّ الأمر يتطلّب جهداً فائقاً لكان مدّ يده محاولاً.

والآن، وقد تمّت جنازة الشّابين، وتمّ دفنهما، وتقدّم المساء وأوى الناس إلى بيوتهم، بعد ثلاثة أيام مضنية، وعادت فرق الحراسة من مواقعها،

والآن، على سايد ورفاقه انتظار المغنّي ليبلغوه أنّ الحفلة أُلغيت لاستحالة إجرائها. وهم لم يستطيعوا الإتصال به من قبل لإعلامه بالأمر لأنّ الخطوط الهاتفية مقطوعة، ولأنّه بعد ما ترك بيروت بسبب المعارك لا يقيم في مكان محدّد.

وتقدّم المساء كثيراً ولم يأتِ المغنّي بعد! وكان في انتظاره سايد وجميل ونافذ على الميدان، يراقبون السيارات النادرة التي كانت تعبر المكان.

- إذا لم يأتِ فمعناه أنّ شيئاً مؤسفاً جداً جرىٰ له! قال سايد.

وبعد وقتٍ آخر من الانتظار والساعة صارت التاسعة والنصف قال سايد:

- يجب أن نغلق البحر!

فنظر إليه نافذ متعجباً.

- ماذا قلت!؟

- قلت إنه علينا أن نغلق البحر! البحر سبب الحرب في لبنان. فلولا أنّ لبنان على شاطىء البحر لكان مقفلاً على جميع الأمم التي لطّخت أيديها بدمنا، ولمّا كنّا نحن اللبنانيين تمادينا في العنف إلى هذا الحد الذي يثير الغثيان.

- والبرّ؟ قال نافذ.

- على سيرة البحر، قال جميل، فإني حين أكون في بيروت، ويبين لي البحر فجأة من أحد شوارعها، أشعر في أعماقي أنّه وحده المتحضّر.

- المسيحيون، قال سايد موجّهاً كلامه إلى نافذ، يعتبرون أنّ البحر حليفهم والمسلمون يعتبرون أنّ البرّ حليفهم.

- أتعتقد أنّ الحرب هي بين المسيحيين والمسلمين؟ قال نافذ.

- لا أعرف، قال سايد، لكني أعرف فقط أنّ الفرز السكاني جرىٰ أولاً على أساس طائفي ثمّ على أساس مذهبي.

- ألا تعتقد ـ قال جميل ـ أنّنا نحن المسيحيين كنّا فنينا منذ زمان لولا البحر، في بلادٍ هي لنا.

- ربما، قال سايد، لكنّ البحر أيضاً يقضي علينا.

كانت الساعة بدأت تقترب من العاشرة، وأصوات القصف تُسمع أصداؤها بوضوح، والناس تندر في الطرقات، وكذلك السيارات. وراح سايد فجأةً في نوبةٍ من العطس:

- بَرَد الطّقس! رشّحت.

- لكنّ البرد دافىء، تمتم نافذ، كأنّه يستدرك في نقاشٍ مع نفسه.

- والحل؟ قال سايد.

- الحل، قال جميل، هو بناء دولة علـ. . .

- لا! لا! قاطعه سايد، أقصد ما الحل بالنسبة للمغنّي؟ أَننتظر أيضاً أم ماذا؟

وبدا في هذه الأثناء ضوء سيارة من صوب الغرب. كانت تتقدّم ببطء، كأنّها تتلمّس طريقاً لا تعرفها. وقبل أن تبلغ الميدان قال سايد:

- هذه سيارته.

شـاهِد

لا تزال حتى اليوم، باديةً للعين من مسافات بعيـدة، مساحـة صغيـرة زرقاء، على صخـرةٍ في أعلى الجهة الجنـوبية لجبـل السيّـدة، قبيل الكنيسة.

الناس تقول، إنّ الزّرقة التي غمـرت الجبل ظلّت تنحسـر مع مـرّ الأيام، حتى استقرّت على هذه المساحة فقط.

إنتهـت

أإلى هذه البلدان المعكوسة ستنقلنا البواخر التي يتحدّثون عنها؟! هذه البواخر التي يُقال إنّ دولاً سترسلها إلينا نحن المسيحيين لتنقلنا من لبنان؟! أيهودَ نحن مستوطنون؟!

وهل ستنقل الموتى هذه البواخر؟! موتى اليوم وموتى الأمس وموتى أمس الأمس.

- ماشي! قال سايد وهو يراها في غضبها المكبوت.

وماذا يستطيع أن يقول لها أكثر من ذلك، وهو الذي كرّر عليها مرّاتٍ ومرّات أنّ هذه الأخبار ما هي إلّا لاستثارة مشاعر المسيحيين ودفعهم إلى القتال بما يخدم إسرائيل.

- فليقطع الله جنس أميركا وجنس إسرائيل!

وأراد سايد هنا أن يسلّي والدته فقال:

- إنّ مدينة نيويورك حيث يقيم أولادك، تستقبل الشمس من جهة البحر.

- ليتها تدمّر! أجابت الوالدة.

- بيّي! تدخّل طارق ـ لماذا سمّيتني بهذا الإسم؟

للمؤلّف: **حين حلّ السيف على الصيف**، بيروت، دار الفارابي، باريس، Le Sycomore ١٩٧٩. **لا شيء يفوق الوصف**، بيروت، منشورات لبنان الجديد، ١٩٨٠. **انسي يلهو مع ريتا ـ كتاب البالغين**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٣. **المستبدّ**، بيروت، دار أبعاد، ١٩٨٣. **فسحة مستهدفة بين النّعاس والنّوم**، بيروت، مختارات، ١٩٨٦. **أهل الظل**، بيروت، مختارات، ١٩٨٧. **تقنيات البؤس**، بيروت، مختارات، ١٩٨٩.